تقابل المعاني في سورة محمد

د. عبد العزيز بن صالح العمار
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي - كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تقابل المعاني في سورة محمد

د. عبد العزيز بن صالح العمّار
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
كلية اللغة العربية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

يبرز البحث بلاغة آيات التقابل في سورة "محمد". أُبيِّنُ فيه مفهوم تقابل المعاني عن طريق الآيات التي تضمنت هذا التقابل، وبيان تعريفه من خلال حديث علماء البلاغة قديماً وحديثاً، مع بيان الفرق بينه وبين مصطلح المقابلة الذي يُدرس في فنون البديع المعنوي.

وقد أقمتُ البحث على التأمل، والنظر الدقيق في هذه الآيات، لبيان الأسرار، والحكم التي جعلت هذه السورة تقوم على هذا التقابل، كما بينت علاقة هذا التقابل بسورة "محمد"، وبموضوعاتها، مبيناً – كذلك – بلاغته، وأسراره البلاغية، وبيان كيف وُظف لإظهار مقاصد السورة وأغراضها.

جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وقد تضمن التمهيد أمرين: الأمر الأول: بعنوان: بين يدي السورة، ذكرتُ فيه: أسماء السورة، ومدنيتها، ومناسبتها لما قبلها. الأمر الثاني: ذكرتُ فيه آيات التقابل في السورة حصراً وتصنيفاً. وأما المبحث الأول: فهو بعنوان: تقابل المعاني: المراد بها، أهميتها، دلالتها، ذكرتُ فيه مرادي بتقابل المعاني، وأهميته في الدراسات البلاغية، ومفارقته لمصطلح المقابلة في البديع المعنوي، وموقف العلماء منه، ودعوتهم لإعادة النظر في دلالات هذا المصطلح، وأنه أكبر من أن يحصر في التضاد بين الألفاظ. وجاء المبحث الثاني بعنوان: بلاغة آيات التقابل، ويعد هذا المبحث لبَّ الدراسة وصلبها، وهو النظر في الأسرار البلاغية لهذه الآيات. ونكتها البيانية، ثم خاتمة البحث وفهارسه.

المقدمة:

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وكماله، حمداً له وشكرا بأن أنعم علينا بالقرآن والإيمان، وجعلنا من المسلمين، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين محمد بن عبدالله – صلى الله عليه – وعلى آله وصحبه الكرام، ومن اهتدى بهديه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد جاء اختياري لموضوع " تقابل المعاني في سورة محمد "؛ لأهميته في الدراسات البلاغية التطبيقية في القرآن الكريم، إذ يبين مفهوم تقابل المعاني في هذه السورة من خلال الآيات التي قامت على هذه الأسلوب، كما يتضمن هذا البحث تحديداً لآيات التقابل في سورة محمد، بعد حصرها وتصنيفها، ومن أهمية هذا الموضوع: أنه يقدم رؤية جديدة لمفهوم المقابلة، ويوسع من دلالاته، ليبين أن التقابل ليس محصورا بين الألفاظ، بل يتعدى ذلك إلى التقابل بين المعاني، وهو أوسع بكثير من أن يُحصر بين الألفاظ كما هو في مصطلح المقابلة في علم البديع، كما سأذكر في هذا البحث.

كما أن في هذا الموضوع بياناً لموقف العلماء من مصطلح التقابل، والإشارة إلى دعوتهم إلى إعادة النظر في كثير من فنون البديع، وأنه بحاجة إلى معاودة النظر، والإضافة فيه، ومن أهمية هذا الموضوع: أنه دراسة تطبيقية تحليلية لآيات التقابل في سورة محمد؛ للنظر في أسرارها البلاغية، ولبيان السر في توافر هذا الأسلوب في هذه السورة.

سأقدم في هذا البحث مفهوم تقابل المعاني، عن طريق تأمل الآيات التي تضمنت هذا التقابل، وبيان تعريفه – كذلك – من خلال حديث علماء البلاغة قديماً وحديثاً، مع بيان الفرق بينه وبين مصطلح المقابلة الذي يُدرس في فنون البديع المعنوي، وسيقوم البحث على إمعان النظر، وقدح زناد الفكر، والنظر الدقيق في هذه الآيات؛ لبيان الأسرار والحِكَم التي جعلت هذه السورة تقوم على هذا التقابل، وسأبين علاقة هذا التقابل

بسورة محمد، وبموضوعاتها. كما سأكشف – كذلك – بلاغة هذا التقابل، وأسراره البلاغية، وبيان كيف وُظف لإظهار مقاصد السورة وأغراضها.

ومن أهمية هذا الموضوع وبواعث دراسته: أني لم أقف – في حدود علمي واطلاعي – على دراسة مستقلة تتناول هذا المصطلح بالدراسة والبحث. فليس هناك دراسة لهذا الموضوع لا تنظيراً لهذا المصطلح، في بيان معالمه، والمراد به، ولا من خلال التطبيق للآيات التي اشتملت فيما بينها على تقابل في معانيها. وغاية ما وقفت عنده إنما هي أقوال وآراء متناثرة هنا وهناك في كتب علوم القرآن، وفي كتب البلاغة.

وقد ذكر الزركشي في كتابه " البرهان في علوم القرآن" بعض الإشارات المهمة، ذكر ذلك تحت عنوان: "معرفة المناسبات بين الآيات"[1]، ولهذا الباب ارتباط وثيق بما أنا بصدده في "تقابل المعاني".

وكذلك ابن الأثير، فقد تحدث في كتابه " المثل السائر" عن المقابلة، وبسط القول فيها. فذكر أنها تأتي على وجوه عدة، وذكر أن هذه المقابلات نوع من أنواع الارتباط والتناسب فيما بينها. كما أفرد لها حديثاً تحت عنوان: " المؤاخاة بين المعاني" فبين المراد به، وذكر ثمرته ومزيته، مبيناً في الوقت نفسه أنه باب عجيب وعظيم، يحتاج إلى مزيد من التأمل والتدبر.[2]

وقد أشار ابن النقيب في مقدمة تفسيره إلى هذا الأمر، وأشاد به، وأشار إلى تميز القرآن فيه، وقد ذكر ذلك تحت مبحث "التناسب". فذكر المراد به، وتميز القرآن فيه، يقول: ((وهو ترتب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر، والقرآن العظيم كله مناسب لا تنافر فيه ولا تباين)).[3]

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٣٥

(٢) يُنظر: المثل السائر: ٣/ ١٥٢.

(٣) يُنظر: مقدمة تفسير ابن النقيب: ١٧٧

هذه بعض الإشارات المتقدمة التي وقفتُ عندها، وأريد من هذه الدراسة أن أجمع هذه الأقوال في مؤلَّف واحد، وأن أنظمها في عقد فريد يظهر حسنه في هذا البحث إن شاء الله.

بالإضافة إلى أني سأدرس هذا المصطلح بتوسع، ببيان المراد به، وموقف العلماء منه قديماً وحديثاً، والمهم في هذه الدراسة أني سأدرس هذا الأسلوب تطبيقاً لا تنظيراً من خلال سورة محمد التي تميزت آياتها بتقابل معانيها، وسأنظر في أسرارها البلاغية ونكتها البيانية.

جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وقد تضمن التمهيد أمرين: الأمر الأول: بعنوان: بين يدي السورة، ذكرتُ فيه: أسماء السورة، ومدنيتها، ومناسبتها لما قبلها، الأمر الثاني: ذكرتُ فيه آيات التقابل في السورة حصراً وتصنيفاً.. وأما المبحث الأول: فهو بعنوان: تقابل المعاني: المراد بها، أهميتها، دلالتها، ذكرتُ فيه مرادي بتقابل المعاني، وأهميته في الدراسات البلاغية، ومفارقته لمصطلح المقابلة في البديع المعنوي، وموقف العلماء منه، ودعوتهم لإعادة النظر في دلالات هذا المصطلح، وأنه أكبر من أن يُحصر في التضاد بين الألفاظ، وجاء المبحث الثاني بعنوان: بلاغة آيات التقابل، ويُعد هذا المبحث لبَّ الدراسة وصلبها، وهو النظر في الأسرار البلاغية لهذه الآيات، و نكتها البيانية، ثم خاتمة البحث وفهارسه.

اعتمدتُ في هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي التحليلي، نظراً إلى تعدد مباحث هذه الدراسة، وطبيعة كل مبحث، ففي التمهيد، والمبحث الأول تمت الإفادة من المنهج الاستقرائي في الحديث عن سورة محمد، وما يتعلق بها، وكذلك في الحديث عن مصطلح تقابل المعاني، في بيان مفهومه، وموقف العلماء منه، وعلاقته بمصطلح المقابلة.

وأما في المبحث الثاني .الذي هو لبُّ الدراسة، وبيت القصيد فيها .فسيكون تحليلياً، فسأنظر في آيات التقابل كلها في ضوء نظرية النظم، وسأقف مع كل آية؛ للنظر

في أساليبها البلاغية، ونكتها البيانية، مضمنا ذلك بأقوال علماء التفسير والبلاغة، ولذا فسأعتمد على المنهج التطبيقي التحليلي لآيات التقابل في سورة محمد.

وبعد: فهذا ما سعيتُ إلى تحقيقه، والوصول إليه، فإن تمَّ ذلك على الوجه الذي أرجوه فقد حققتُ مرادي، وأصبتُ مبتغاي، وذلك تفضل منه – سبحانه – وتكرم. وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلتُ وحاولتُ، وإن لم أبلغ الكمال فحسبي – أيضاً – أني سعيتُ له واجتهدتُ، والله وحده هو الذي يتولى أمرنا، ويوفقنا إلى السداد والصواب، والحمد لله رب العالمين

* * *

التمهيد: أولا: بين يدي السورة:

١. أسماء السورة

تُسمى بسورة "محمد"، وهي أشهر أسمائها، وبذلك عُرفتْ واشتُهرتْ في التفاسير، وفي كتب علوم القرآن، وبها سُميت في المصحف الشريف، وقد جاءت هذه التسمية في كتب السنة، وفي ترجمة صحيح الإمام البخاري.[١]

وسبب هذه التسمية أن فيها إشارة إلى ((أن الإيمان بما نزل على محمد متفرقاً أعظم بما نزل مجموعاً على سائر الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وهو من أعظم مقاصد القرآن)) .[٢]

إذن فقد تضمنت هذه التسمية الإشارة إلى مكانة الرسول ﷺ، وعلو قدره، كما أن فيها تخليداً لذكره، وفي هذا تأكيد لقوله – تعالى –: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾[الشرح: ٤]

ولأن هذا السورة تضمنت ذكر اسمه ﷺ صراحة، بل افتُتحت السورة بذكره في ثاني آياتها في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[محمد: ٢][٣]، وكثير من سور القرآن تُسمى بألفاظ وردت في أثناء السورة، وقد أشار الطاهر ابن عاشور إلى هذا السبب في قوله: ((ووجهه أنها ذُكر فيها اسم النبي في الآية الثانية، فعُرفتْ به)) .[٤]

وثمة تسمية أخرى لهذه السورة، وهي "سورة القتال"، وقد عُرفت بهذا الاسم، واشتهرت به في كتب التفاسير، وفي كتب علوم القرآن، فقد تضمنت السورة حديثاً عن القتال، وعن مشروعيته، وعن كثير من أحكامه، كما نُصّ فيها على لفظة "القتال"

---

(١) يُنظر: صحيح البخاري، كتاب: التفسير، سورة محمد: ١٠٣٥.

(٢) محاسن التأويل: ٥٣٧١/١٥

(٣) يُنظر: التحرير والتنوير: ٧٢/٢٦

(٤) المصدر السابق: ٧٢/٢٦.

في قوله: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾[محمد: ٢٠]، ولذا فإن تسميتها بـ"سورة القتال" تسمية قرآنية، كما يذكر ذلك الطاهر ابن عاشور.[١]

وقد أشار إلى هذا المعنى وأكده سيد قطب في مفتتح تفسيره لهذا السورة، يقول – عن هذه التسمية –: ((وهو اسم حقيقي لها: فالقتال هو موضوعها، والقتال هو العنصر البارز فيها، والقتال في صدرها وظلالها، والقتال في جرسها وإيقاعها)).[٢]

وقد ذكر هذا المعنى، وأشار إليه كثير من المفسرين الذين تحدثوا عن مضمون هذه السورة وموضوعاتها، فذكروا أن القتال عنصر بارز فيها، بالأمر به، وببيان مشروعيته، وبذكر فوائده ومنافعه في الدنيا والآخرة [٣]

ولذا جاءت أغراض السورة وموضوعاتها متلائمة مع هذه التسمية، ففيها التحريض على قتال المشركين، وترغيب المسلمين في الجهاد، والإقدام عليه، وفي بيان ما أعده الله لهم جزاء جهادهم في الدنيا والآخرة.

٢. مدنية السورة:

سورة "محمد" من السور المدنية، ما عدا آية واحدة منها، وهي قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[محمد: ١٣]، فقد نزلت بعد حجته ﷺ حين خرج من مكة.[٤]

وهذا هو رأي ابن عباس وابن قتادة[٥]، ورأي جمهور المفسرين [٦]، فهي مدنية على الأرجح من أقوال المفسرين، وليس الإجماع، كما زعم ذلك ابن عطية في مفتتح تفسيره لهذه السورة [٧]

---

(١) المصدر السابق: ٢٦/٧٢.

(٢) في ظلال القرآن: ٦/٣٢٧٨

(٣) يُنظر: محاسن التأويل: ١٥/٥٣٧١ .

(٤) يُنظر: البحر المحيط: ٨/٧٣

(٥) المصدر السابق: ٨/٧٣ .

(٦) يُنظر: الكشاف: ٣/٥٢٩، والشهاب: ٨/٣٩. وغيرهما

(٧) يُنظر: المحرر الوجيز: ٥/١٩.

وقد رُدَّ عليه ذلك. وممن ردَّ عليه أبو حيان الأندلسي في قوله: ((وقال ابن عطية مدنية بإجماع، وليس كما قال))[1]. كما رد عليه – كذلك – الشهاب في قوله: ((هي مدنية على الأصح، ولا إجماع فيه كما قال ابن عطية، فإنه رُوي خلافه عن ابن عباس، وبعض الصحابة، فلا وجه لدعوى الإجماع))[2].

ولذا فالأصح من أقوال المفسرين وآرائهم أنها مدنية، يدل على ذلك خصائص السورة الموضوعية والأسلوبية، فلها من ذلك الحظ الوافر، كما سيتضح ذلك جلياً من خلال الوقوف مع آيات التقابل في هذه الدراسة، والنظر – كذلك – في خصائصها الأسلوبية، وأسرارها البلاغية.

٣. مناسبة السورة لما قبلها:

تأتي سورة "محمد" بعد سورة "الأحقاف" في ترتيبها في المصحف، وبين هاتين السورتين ارتباط وثيق، ومناسبة قوية، سوغ معه أن تليها في المصحف الشريف، وقد طفق العلماء ينظرون في أسرار هذا الترتيب، فأمعنوا نظرهم في ذلك، وقد حوا زناد فكرهم الثاقب، فذكروا كثيراً من الأسرار والدرر الدالة على بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، ولشدة الارتباط الوثيق بين السورتين فقد اكتفى بعض المفسرين بالإشارة إليه دون بيانه وتحديده، دلالة على وضوحه وبيانه، ومن ذلك قول أبي حيان الأندلسي: ((ومناسبة أولها لآخر ما قبلها واضحة جداً))[3]. مكتفياً بهذه الإشارة اتكاءً على شهرته ووضوحه.

ومن هؤلاء الألوسي، يقول – في مفتتح تفسيره لهذه السورة – : ((ولا يخفى قوة ارتباط أولها بآخر السورة قبلها، واتصاله وتلاحمه بحيث لو أُسقطت من البين البسملة لكاناً متصلاً واحداً، لا تنافر فيه، كالآية الواحدة، آخذاً بعضه بعنق بعض)).[4]

---

(١) البحر المحيط: ٨/ ٧٣

(٢) حاشية الشهاب: ٨/ ٣٩

(٣) البحر المحيط: ٨/ ٧٣ .

(٤) روح المعاني: ١٣/ ١٨٣.

وقد كشف الزراي في تفسيره هذه المناسبة، وأبانها في قوله: ((أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة، فإن آخرها قوله – تعالى –: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. فإن قال قائل: كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة، كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وغير ذلك، مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره، فيكون في إهلاكه إهدار عمله، وقد قال – تعالى –: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧]. وقال – تعالى –: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:١] أي لم يبق لهم عمل)).[1]

وقد أشار إلى مثل هذه المناسبة البقاعي في تفسيره، فقد ألمح إلى هذه المناسبة، وأشار إلى الارتباط الوثيق بين السورتين.[2]

ومن خلال هذه المناسبة، وهذا الارتباط بين السورتين تتجلى بلاغة القرآن الكريم وإعجازه. فسورة "الأحقاف" المتقدمة مكية، وسورة "محمد" مدنية، وكم بينهما من السنين، وكم وقعت فيها من أحداث ووقائع، وكم نزل بينهما من السور والآيات، ومع ذلك فبين السورتين من التلاحم والترابط الشيء العجيب الشاهد بعظمة هذا القرآن الكريم، وصدق الله القائل: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. فسبحان من هذا كلامه! تعالى وتقدست أسماؤه.

ثانياً:آيات التقابل في سورة محمد: حصراً وتصنيفاً:

من الأهمية بمكان ذكر آيات التقابل الواردة في سورة محمد؛ لنكون على بينة منها، ومعرفة بها؛ ولأن ذكرها وحصرها من الأهمية بمكان. كما أنه جزء من هذه الدراسة؛ وليكون هذا الحصر لآيات التقابل البداية التي سأنطلق منه في دراسة هذه الآيات، وبيان ما تضمنته من أسرار بلاغية، ونكت بيانية؛ للوصول من خلال هذه الآيات، والوقوف معها إلى حِكم تقابل المعاني في سورة محمد، وأغراضها البلاغية.

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٨/ ٣٢

(٢) يُنظر: نظم الدرر: ١٨/ ١٩٥.

وهذه الآيات هي:

١. قول الله – تعالى – : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

٢ـ قول الله – تعالى – : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾

٣. قول الله – تعالى – : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾

٤. قول الله – تعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

٥. قول الله – تعالى – : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

٦. قول الله – تعالى – : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

٧. قول الله – تعالى – : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾

٨. قول الله – تعالى – : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾

٩ـ قول الله – تعالى – : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

١٠. قول الله – تعالى – : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

١١. قول الله – تعالى – : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

هذه هي آيات التقابل في سورة "محمد"، والمتأمل فيها، المتدبر لها يجد أنها لم تسلك سبيلاً واحداً، بل تنوعت، وسلكت مسالك شتى، وقد أخذت صوراً متعددة، وأشكالاً مختلفة في تحقيقها لهذا التقابل.

وفيما يأتي بيان لهذا التعدد، وذلك التنوع، جاء التقابل في بعض المواضع في آيتين مستقلتين، فتأتي آية تخص الكافرين في الحديث، وفي بيان حالهم في الدنيا، ومآلهم في الآخرة، ويأتي مقابلها في آية أخرى في الحديث عن المؤمنين، في بيان حالهم في الدنيا، وعاقبتهم في الآخرة، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾ وقابلها في قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ كذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ . وجاء مقابلها في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ﴾ . وكذلك قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ ، وجاء مقابلها في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

وقد جاء هذا النوع في ثلاثة مواضع، وفي ست آيات، والمتأمل لهذا النوع يجد أنه في موضعين بدأ بذكر الكافرين، في بيان حالهم، ثم ذكر مقابله فيما يتعلق بالمؤمنين، وبيان ذلك كما يأتي: الموضع الأول في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾ حديث عن الكافرين، ثم ذكر مقابله فيما يتعلق بالمؤمنين في قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ وفي قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ فيه حديث عن الكافرين، ثم ذكر مقابله فيما يتعلق بالمؤمنين في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ وفي موضع واحد بدأ الحديث عن المؤمنين، ثم ذكر مقابله في الحديث عن الكافرين، وذلك في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ . وجاء مقابلها في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ﴾

هذا جزء من التقابل، وثمة نوع آخر في آيات أخرى، فقد يُذكر التقابل في آية واحدة، وذلك في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ . وقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾. وقولـــه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾. وقولـه: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

وقد جاء التقابل في هذه السورة في خمسة مواضع، والمتأمل فيها يجد أن الأغلب فيها أن يُذكر ما يتعلق بالمؤمنين أولاً، ثم يُذكر ما يقابله فيما يتعلق بالكافرين، جاء ذلك في أربعة مواضع في آية (١١، ١٢، ١٣، ١٤)، وفي موضع واحد جاء التقابل في هذا النوع بالبدء بالحديث عن الكافرين، ثم ذُكر ما يقابله في حق المؤمنين، جاء ذلك في آية (٣).

وثمة نوع آخر من أنواع التقابل في هذه السورة، ذُكر فيه ما يخص المؤمنين، دون ذكر مقابله في حق الكافرين، وهو نوع لطيف من أنواع التقابل، وذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

وهناك ملحظ آخر فيما يتعلق بتقابل المعاني في هذه السورة، وهو أن هذا التقابل جاء في أول السورة، وفي بدايتها، فالسورة مكونة من ثمان وثلاثين آية، وقد وقف التقابل عند الآية السابعة عشرة، وقد جاءت السورة في أربعة أوجه، وقد خلا الوجهان الأخيران من هذا التقابل، فقد خُصَّ التقابل في الوجهين الأول والثاني، وقد خلا الوجه الثالث والرابع منه، وقد حُصر في الوجهين الآخرين في الحديث عن الكافرين دون ذكر مقابله فيما يتعلق بالمؤمنين، حكمة بالغة

* * *

المبحث الأول: تقابل المعاني: المراد بها، أهميتها، دلالتها:

إن الناظر في كتب علوم القرآن، المتأمل لها يجد أن ثمة إشارات متناثرة هنا وهناك، وفي مواضيع متفرقة تتحدث عن المناسبة بين آي القرآن الكريم، إشارات تدل على إدراكهم العميق لما يتميز به القرآن الكريم في نظمه، يتجلى هذا التميز في ترابط آياته فيما بينها، وفي تماسك كلماته، فبعضها آخذ بعنق بعض، لا ترى فيما بينها ثغرة ولا خللا، بل هو بناء محكم متماسك مترابط فيما بينه كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً.

وقد جاء في كتاب " البرهان في علوم القرآن" للزركشي كثير من الإشارات المهمة، والمتقدمة في موضوع التناسب، ذكره تحت عنوان: "معرفة المناسبات بين الآيات". ولهذا الباب ارتباط وثيق بما نحن بصدده في "تقابل المعاني". يقول فيه: ((واعلم أن المناسبة علم شريف، تحرز به العقول، ويُعرف به قدر القائل فيما يقول)) [1]

وفي إشارته إلى أن المناسبات بين الآي علم دلالة على فهم عميق من لدنه، ودلالة مهمة تحمل في طياتها كثيراً من الإيحاء، كما أنها دعوة للإسهام في هذا العلم، وإرساء قواعده، والانطلاق في بناء مباحثه وفصوله، وهي – أيضاً – دعوة للتأمل، فهذا العلم قائم على النظر والتأمل، وطول التدبر، وإدامة الصحبة لآيات الكتاب العزيز، ثم هو من قبل هذا وبعده فتحه – سبحانه – على من يوفقه للنظر في القرآن الكريم، وذلك تكرم منه – سبحانه – وتفضل، وهو أهل الفضل والجود، وذلك فضله – سبحانه – يؤتيه من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم.

ولم يكتفِ الزركشي بهذه الإشارة، بل أتبعها ببيان ثمرة هذا العلم وفائدته، في قوله: ((وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء)) [2]

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٣٥/١

(٢) المصدر السابق: ٣٦/١

ثم أشار في خاتمة حديثه عن هذا العلم إلى ندرة الدراسات فيه، وقلة عناية العلماء به، بالرغم ما يحتويه من فوائد جمة، ودرر مفيدة تبرز بلاغة القرآن الكريم، وتظهر تماسكه، وتلاحم أجزائه، وقد عزا قلة عناية العلماء به إلى دقة هذا العلم، وغموض مسلكه، وقد استثنى من العلماء: الإمام فخر الدين الرازي، فذكر عنه أنه أكثر من النظر فيه، والحديثِ عنه في تفسيره [1]

وثمة نصوص أخرى، وإشارات قيمة للزركشي عن موضوع المناسبة في القرآن الكريم، فلم يكن ما تقدم كل ما ذكره عن هذا الأمر، فلم يزل هذا الموضوع يتردد صداه في نفسه وزواياها، ولذا عاد إليه فذكره في موضع آخر تحت مبحث " أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض". وفي هذا العنوان إشارة إلى الارتباط الوثيق الذي يربط آي القرآن بعضها ببعض، مما يدل على أن بينها مناسبة وارتباطاً أياً كان ذلك الارتباط، فقد يكون تقابلاً أو غيره، يقول في بيان مراده من هذا المبحث: ((وقد تكون العلاقة بينهما المضادة، وهذا لمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الهدى، وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً، ليكون ذلك باعثاً على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه، ليُعلم عظيم الآمر والناهي)) [2] .

هذه بعض جهود الزركشي وإشاراته في هذا الموضوع، وبيان أهميته ومنزلته في الدراسات القرآنية، وقد ذكرتها في سياق التدليل على اهتمام علماء علوم القرآن بموضوع التناسب، والتفاتتهم إليه، وقد اقتصرتُ في الحديث عن هذا الأمر على الزركشي وكتابه، لمكانة هذا العالم وكتابه في الدراسات القرآنية فلا تخفى مكانة هذا الكتاب، وعلو كعبه بين كتب علوم القرآن، فله فضل السبق في كثير من موضوعاته، وكل من جاء بعده يكاد يكون عالة عليه.

---

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ٣٦/١

(٢) المصدر السابق: ٤٦٢/٣

كما أن لعلماء البلاغة نصيباً وافراً في الحديث عن موضوع التناسب. وفي الإشارة إليه، وفي تميز القرآن الكريم به، فكان ذلك وجهاً من وجوه إعجازه، ومن هؤلاء: ابن الأثير، فقد تحدث عن المقابلة، وبسط القول فيها، فذكر أنها تأتي على وجوه عدة، وذكر أن هذه المقابلات نوع من أنواع الارتباط والتناسب فيما بينها[1]. كما أفرد لها حديثاً تحت عنوان: " المؤاخاة بين المعاني" فبين المراد به، وذكر ثمرته ومزيته، مبيناً في الوقت نفسه أنه باب عجيب وعظيم، يحتاج إلى مزيد من التأمل والتدبر.[2]

وقد أشار ابن النقيب في مقدمة تفسيره إلى هذا الأمر، وأشاد به، وأشار إلى تميز القرآن الكريم فيه، وقد ذكر ذلك تحت مبحث "التناسب". فذكر المراد به، وبلاغة القرآن الكريم فيه، يقول: ((وهو ترتب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر، والقرآن العظيم كله مناسب لا تنافر فيه ولا تباين)).[3]

كما أشار إلى هذا المعنى وأبرزه -كذلك- ابن أبي الإصبع في كتابه "تحرير التحبير" ذكره في باب " صحة المقابلات"، ثم بيّن المراد به، وأقسامه، وشواهده من القرآن الكريم.[4]

هذا شيء مما ذكره علماء علوم القرآن والبلاغة عن التناسب في القرآن الكريم. والتناسب باب كبير يدخل فيه كثير من الأساليب والفنون البلاغية. وسأتناول في هذه الدراسة لوناً واحداً من ألوان التناسب في القرآن، وهو تقابل المعاني، ولن أتناوله – كذلك – على عمومها، بل سأقيد هذه الدراسة في سورة "محمد"، فستكون هذه الدراسة تطبيقية لتقابل المعاني في هذه السورة

ومن المهم جداً أن أبين المراد بتقابل المعاني، وأحب أن أوضح بادئ ذي بدء أن هذا المصطلح ليس بدعاً في الدراسات القرآنية، ولا في الدراسات البلاغية. فقد ذكر هذا

---

(١) يُنظر: المثل السائر: ٣/١٥٢

(٢) يُنظر: المصدر السابق: ٣/١٥٤

(٣) يُنظر: مقدمة تفسير ابن النقيب: ١٧٧

(٤) يُنظر: تحرير التحبير: ١٧٩.

المصطلح الزركشي، وعدّه نوعاً من أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض. فقد نصّ على هذه التسمية، وذكر فوائدها، والأمور التي ينبغي توافرها لمن رام النظر في تقابل المعاني، والغوص في دقائقها، والكشف عن أسرارها الكامنة فيها.[1]

ومن المهم بيانه في هذا المقام: التأكيد على أنه لا يُراد بتقابل المعاني الطباق ولا المقابلة بمعناهما الاصطلاحي الذي يذكره البلاغيون في علم البديع، كلا. فالأمر أوسع دائرة بكثير من أن يُحصر في هذين المحسنين البديعيين، فضلاً أن الطباق وكذلك المقابلة لا ينطبقان كذلك على مرادي بتقابل المعاني في هذه الدراسة.

ولذا فإن تقابل المعاني أوسع دائرة من مفهوم الطباق والمقابلة عند البلاغيين، بل إن الطباق والمقابلة يكاد يكونان جزءاً من تقابل المعاني، فهما جزء منه، وينطويان تحته، وسأسير في هذه الدراسة على النظر في تقابل المعاني بمفهومها الواسع، وبميدانها الفسيح، ولن أقيد هذه الدراسة أو أضيق نطاقها بمصطلح المقابلة البلاغي عند البلاغيين.

وثمة كثير من الأصوات و الدعوات التي تنادي بتوسعة دائرة المقابلة، والإشارة إلى أنها أوسع بكثير من أن تُضيق بمجرد التقابل بين الألفاظ قلت أو كثرت.

ومن الإشارات المتقدمة في هذا: قول القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني: ((وأما المطابقة فلها شعب خفية، ومنها مكامن تغمض، وربما التبست بها أشياء لا تتميز إلا بالنظر الثاقب، والذهن اللطيف...))[2]. وهي إشارة واضحة ومهمة إلى أن الطباق ومثلها المقابلة لا تنحصر في صور المقابلة اللفظية، كيف وهي ذات شعب متعددة، وتكمن مزية هذه الشعب وصعوبتها – كذلك – في تعددها وغموضها، وخفائها والتباسها بغيرها، ولن تتميز إلا لدى رجل حصيف ثاقب، وأين ذلك الرجل؟

---

(١) يُنظر: البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٤٦٢

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٤٤.

وقد أشار إلى هذا المعنى وأكده – كذلك – القرطاجني في قوله: ((وإنما تكون المقابلة في الكلام بالتوفيق بين المعاني التي يطابق بعضها بعضاً، والجمع بين المعنيين اللذين تكون بينهما نسبة، تقتضي لأحدهما أن يُذكر مع الآخر من جهة ما بينهما من تباين، أو تقارب على صفة من الوضع تلائم بها عبارةُ أحد المعنيين عبارةَ الآخر، كما لاءم أحد المعنيين في ذلك صاحبه)).[1]

وهو نص نفيس مليء بالدلالات والإشارات المهمة المتعلقة بالمقابلة، وأنها أوسع بكثير من أن تُحصر بالألفاظ، ومكمن جماليات هذا النص أنه ربط المقابلة بالمعاني، لوجود توافق بينهما يسوغ معه وبه أن يقرنا في مقام واحد، وقد يكون الجامع بينهما التباين أو التقارب، وتلك لمحة دقيقة متقدمة عن الجامع أو الرابط الذي يجمع بين المعاني حتى ولو كان ذلك تبايناً وتضاداً.

وقد حظيت هذه الدعوات المتقدمة بقبول لدى كثير من علماء البلاغة والبيان في العصر الحديث، فجاءت أقوالهم ومواقفهم مؤيدة لتلك المقولاتآخذة بيدها إلى الظهور، والدعوة إليها، وإبرازها في الدراسات البلاغية الحديثة، ومن تلك الأصوات الحديثة والجريئة: كلام الدكتور عبدالفتاح عثمان، يقول – بعد أن أبرز جماليات أسلوب المقابلة –: ((والمقابلة في التعبير قد ترقى عن هذا المستوى اللفظي الذي يقوم فيه التضاد بين المعاني اللغوية للكلمات والجمل إلى مستوى أرحب من المفارقة التصويرية التي يبرز فيها التناقض من المواقف والأفكار والأحداث)).[2]

وممن أخذ بهذا الرأي ودعا إليه الدكتور الشحات محمد أبو ستيت، فهو ممن اهتم بالمحسنات البديعية، فله دراسات منهجية ومتخصصة في هذا العلم، وهو ممن يرى أن الطباق لا يمكن حصره في مجرد الجمع بين المعاني المتقابلة، أو في الألفاظ المتضادة،

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ٥٢ .

(٢) دراسات في علم المعاني والبديع: ٢١٣ .

ولو كان الأمر كذلك لظل حلية شكلية، وزخرة لفظية خالية من الجودة الأسلوبية، ولن ترقى إلى الأساليب البلاغية، ولن يكون لها قيمتها الفنية والبلاغية.[1]

ولذا فتراه يصدع ويصرح بموقفه من المقابلة في قوله: ((وإن كنا نميل إلى التوسع في مفهوم المقابلة بما لا يؤدي إلى تداخل الفنون وخلطها، لنرى المقابلة تضم المشاهد التي تنهض على الموازنات والمقارنات بين أنماط مختلفة، وأصناف متباينة، وإن لم تكن أطرافها متساوية العدد، متضادة المعاني، منطوقة على الترتيب، وعلى هذا فالمشاهد القرآنية في وصف المؤمنين والكافرين، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والمشاهد التي تصف الآيات الكونية و غيرها مما يرد على نمط المقارنة والموازنة ينبغي أن تنطوي تحت لواء المقابلة، فقول الله – تعالى – ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد: ١٢] كل هذا وما يشبهه يدخل في باب المقابلة دون نظر إلى التضاد أو الترتيب أو العدد... وهذه إشارة يسيرة إلى موضوع ينبغي أن يُدرس بإتقان فالنظم القرآني مشحون بالمشاهد المتقابلة، والصور التي تقوم على المقارنة والموازنة))[2].

والرائع في هذا النص، وهو مما يثبت موقفي، ويقوي مذهبي أنه استشهد فيما ذهب إليه بآية من سورة "محمد"، وهي من ضمن الآيات التي ستقوم عليها هذه الدراسة، وقد ذكر عنها أنها تدخل في صميم باب المقابلة، دون النظر إلى اعتبارات البلاغيين في قيودهم على مصطلح المقابلة، ودون النظر – كذلك – إلى التضاد، أو الترتيب، أو العدد، خاتماً قوله إلى ما تميز به النظم القرآني، وأنه من الخطأ البين، والظلم الكبير إخضاعه لكثير من القواعد والتعريفات؛ لكونه مشحوناً بالمشاهد المتقابلة، والصور التي تقوم على المقارنة والموازنة، وذلك من صميم المقابلة، وإن لم تخضع لقاعدة بلاغية، إذ لم يصطلح علماء البلاغة في انطوائها تحت مسمى علم الطباق أو المقابلة.

---

(١) يُنظر: دراسات منهجية في علم البديع: ٥٠

(٢) المصدر السابق: ٦٣.

إذن فهذا هو الميدان الواسع، والأفق الرحب لأسلوب المقابلة التي ينبغي أن تتجلى فيها، وأن تبرز في سياقها دون أن تحد بنوع أو عدد.

وينبغي أن يكون هذا التوسع، وذلك الانفتاح لفن المقابلة امتداداً لما يضعه البلاغيون، ولبنة تضاف إلى لبنات، وهي صور متجددة، وفنون متعددة تتسع لها المقابلة، ولا تضيق بها، كيف لا؟! ((وهي صور جديدة يمكن أن تدخل باب المقابلة وتثريها، وهي اختلاف الأعداد في المقابلات، فقد يقابل الأقل بالأكثر، وقد يقابل الأكثر بالأقل، وهو باب يمكن أن يتسع لدراسة متأنية تكشف أسراراً بلاغية بالوقوف على شواهده المختلفه)).[1]

وفي هذا النص النفيس تأكيد لما تقدم من أن هذا التوسع المنضبط أنه يزيد المقابلة ثراء وغناء، كما أنه يوسع الدراسة، ويفتح آفاقها الرحبة، ويكشف أسرارها البلاغية، كيف لا؟! وهي تتكئ على الشواهد البلاغية الفصيحة.

وممن دعا إلى هذا التوسع، وإلى دراسة أرحب لفن المقابلة د. عبدالواحد علام، وهو ممن عُني بالبديع، ودراسة كثير من قضاياه، يقول - بعد أن تذمر كثيراً ممن حصروا البديع بأمور شكلية، لا علاقة لها بقيمتها الفنية، ولا بوظيفتها التعبيرية، ممن داروا في فلك القزويني وشراحه، وحصروا أنفسهم ودراساتهم في آرائهم وتقيدوا بها - يقول: ((إن البعد بالمقابلة عن مجرد المقابلة بين الألفاظ إلى المقابلة بين المواقف أمر جديد أن يبشر به النقد الحديث، ويدعو إليه، وحقيق بأن يتبناه البلاغيون العرب الحريصون على تطور البلاغة تطوراً مستمداً من التراث، ومتكئاً على القديم)).[2]

وأنا معه في هذه الدعوة، وفي هذا التوسع في النظر في مفهوم المقابلة، وفي مد آفاقها، وتوسيع نطاقها؛ لكونها أسلوباً عربياً، ومحسناً بديعياً أكبر من أن يُحصر في عدد، أو أن يُقعد في قوالب، فستظل ((أمد ميداناً، وأشد افتناناً، وأكثر جرياناً، وأعجب

---

(١) دراسات في علم البديع: ١٠١

(٢) البديع المصطلح والقيمة: ١٥٢

حسناً وإحساناً، وأوسع سعة، وأبعد غوراً. وأذهب نجداً في الصناعة، وغوراً من أن تُجمع شعبها وشعوبها، وتُحصر فنونها وضروبها)). [1] هذا كلام عبدالقاهر الجرجاني عن فن من فنون القول، وهي الاستعارة، وما المقابلة عنها ببعيد؛ لكثرة شعبها، وتنوع صورها، وتعدد مظاهرها، فكلاهما أسلوب عربي، وصورة من صور جماليات الكلام، وفن من فنونه، فالمنزع واحد.

ولكن ومع هذه الدعوة، وهذا التوسع في مفهوم المقابلة لدى كثير من علماء البلاغة في القديم و الحديث إلا أن ثمة لفيفاً من العلماء ممن ضيق وتشدد في مفهومها، كما نرى ذلك عند السكاكي، والخطيب، ومن سلك مسلكهما، فهي عندهم محصورة بمقابلة الأضداد وما يلحق بها، ولا شيء سواها، وأخرجوا كثيراً من الصور والأساليب التي يمكن أن تكون داخلة في المقابلة، بل هي من صميم صورها[2]، ولكني لستُ مع هذا التضييق، وذلك التشدد، ولا آخذ به.

وقد أشار كثير من البلاغيين إلى أسرار المقابلة، وإلى ثمارها اليانعة حين تُدرس في ضوء الأساليب الفصيحة، وفي ضوء سياقها، وممن أشار إلى أسرارها البلاغية د. بسيوني عبدالفتاح فيود، يقول: ((ما من ريب في أن الجمع بين الأمور المتضادة يكسو الكلام جمالاً، ويزيده بهاء ورونقاً، فالضد كما قالوا يظهر حسنه الضد، ولكن وظيفة الطباق لا تقف عند هذا الزخرف، وتلك الزينة الشكلية، بل تتعداها إلى غايات أسمى، فلا بد أن يكون هناك معنى لطيف، ومغزى دقيق وراء جمع الضدين في إطار واحد، وإلا كان هذا الجمع عبثاً، وضرباً من الهذيان)). [3]

وقد أجمل الدكتور الشحات محمد أبو سبيت الأسرار البلاغية لهذا الفن، كاشفاً غرضه، والهدف الذي يسعى إلى تحقيقه، يقول ((لا تكمن في مجرد الجمع بين المعاني المتقابلة، والألفاظ المتضادة، فهذه حلية شكلية، وزخرفة لفظية، لا تقاس بها جودة

---

(١) أسرار البلاغة: ٤٢.

(٢) يُنظر: دراسات منهجية في علم البديع: ٦١.

(٣) علم البديع: ١٣٦، د. بسيوني عبدالفتاح فيود.

الأسلوب، ولا تقدر بها قيمته))[1]، ثم أشار إلى قيمته الحقيقية، مبيناً أنها تتجلى في ناحيتين: ((ناحية لفظية:وذلك بمجيئه في الأسلوب سلساً طيعاً غير متكلف، فيخلع عليه جزالة وفخامة، ويجعل له وقعاً جميلاً مؤثراً، وناحية معنوية: بما يحققه من إيضاح المعنى، وإظهاره، وتأكيده، وتقويته عن طريق المفارقة بين الضدين، وتصور أحد الضدين فيه تصور للآخر، وعلى هذا فالذهن عن ذكر الضد يكون مهيئاً للآخر، ومستعداً له، فإذا ورد ثبت وتأكد فيه)). [2]

إذن هذه هي المقابلة بمفهومها الواسع، وبميدانها الرحب، وذلك شيء من أسرارها البلاغية، ووظيفتها البيانية، وهو مرادي بتقابل المعاني في هذه الدراسة، إذ إن الأساس الذي قامت عليه المقابلة هو النظر في المعنى وبنائه، فهو أساس المقابلة وعمادها، فالمعنى وحده وليس شيئاً سواه، يدل على هذا ويؤكده قول الدكتور محمد أحمد علي – بعد أن بيّن الفضاء الرحب لأسلوب المقابلة، والهدف الذي تسعى إليه – يقول: ((إن القضية في المقابلات قضية معنى، وليست قضية عدد، ولا قضية تضاد حقيقي)). [3]

ومن هنا جاء العنوان في هذه الدراسة بـ:" تقابل المعاني". وستكون هذه الدراسة تطبيقاً للمقابلة بهذا المفهوم، وستتجلى أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية، لكونها تنظر إلى المقابلة بهذا المفهوم في أبلغ الأساليب وأفصحها في القرآن الكريم في سورة محمد.

---

(١) دراسات منهجية في علم البديع: ٥١ .

(٢) المصدر السابق: ٥١

(٣) دراسات في علم البديع: ٩٦

المبحث الثاني: بلاغة آيات التقابل:

الموضع الأول من مواضع تقابل المعاني في السورة في قوله – تعالى –: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾

استفتحت السورة بالتقابل، فقد بدأت ببيان الكافرين، وذكر حالهم، وبيان مآلهم، وعاقبة أعمالهم. كما تضمن هذا الاستفتاح براعة الاستهلال، ففيه من القوة والتشويق، والإثارة والتأثير، ولذا فإن في هذا الاستهلال إعلاماً بموضوعات السورة، وكشفاً عنها، وصدعاً بها، ولعل هذا هو السرّ بتسمية هذا المصطلح بـ"براعة الاستهلال"؛ ((لأن فيه بياناً وكشفاً عن المراد بيانه، لأن المتكلم يفهم غرضه من كلامه عن ابتداء رفع صوته فيه)).[1]

ولا غرو أن يهتم المتكلم بهذا الموضع ويتأنق فيه، وأن يخصه بمزيد من العناية، وأن يرفع صوته فيه.

وقد تميز القرآن الكريم بحسن مطالعه، وبراعة استهلالاته في مطالع سوره كلها، فقد بلغ الإعجاز في هذا، لأهمية المطلع، ولدلالته على ما سيأتي بعده، وإشارته إليه.

ولذا فإن سورة "محمد" بهذا الاستفتاح تعد نموذجاً بليغاً لبراعة الاستهلال، وقد ازدان هذا الاستهلال، وازداد ألقاً وتألقاً حين قام على تقابل المعاني في بيان حال المؤمنين والكافرين في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾ وقد استُفتحت السورة بالموصول في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ فهي مبتدأ وخبرها قوله: ﴿ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[2]. ولا يخفى بلاغة هذا الاستفتاح ودلالاته، ((ففي الموصول وصلته تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر الذي لأجل كفرهم وصدهم. وبراعة الاستهلال للغرض المقصود)).[3]

---

(١) أنوار الربيع: ٥٦/١ .

(٢) يُنظر: التبيان في إعراب القرآن: ٢٣٦ .

(٣) التحرير والتنوير: ٧٣/٢٦ .

وقد تضمن قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الإيجاز بنوعيه: الحذف والقِصَر، وهذا من بدائع نظم القرآن الكريم، وصورة من صور إعجازه، فثمة حذف في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وقد أشار ابن كثير في تفسير هذه الآية إلى الحذف الكامن فيها، يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي بآيات الله، كما أن في قوله: ﴿ وَصَدُّوا۟ ﴾ حذفاً، والتقدير: وصدوا غيرهم[1]. وتتجلى بلاغة هذا الحذف بما فيه من الإيجاز، وإحكام البناء، وقد عُرف المراد، كما أن فيه تعميماً وإبهاماً، وفي ذلك مزيد من الإنكار والتشنيع على الكافرين، وعلى الأعمال التي أقدموا عليها.

أما إيجاز القصر ففي قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ فهي وإن كانت نازلة في كفار قريش الذين أخرجوا رسول الله ﷺ[2]، إلا أنها تعم كل من كفر بالله، وصد عن سبيله، من لدن نزول الآية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[3]، ولذا فقد شملت هذه الآية – على قصر ألفاظها – أقواماً لا عد لهم ولا حصر ممن كفروا بالله، وصدوا عن سبيله، من بداية الدعوة المحمدية إلى قيام الساعة، وما أكثرهم لا كثرهم الله، ولذا فهي – كما يقول ابن عطية –: ((تعم كل مَن دخل تحت ألفاظها)). [4]

ويصح أن يكون "الصد" في قوله: ﴿ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لازماً أو متعدياً، فعلى الأول: يكون المعنى: أي أعرضوا عن الدخول في الإسلام، وسلوك طريقه، فهو من الصدود. [5]

وأما على القول الثاني، فيكون المعنى: أنهم صدوا غيرهم عن عبادته – سبحانه – والإقرار بوحدانيته، والإيمان برسوله، ولذا فهي من الصد. [6]

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٨٢.

(٢) يُنظر: المحرر الوجيز: ٥/ ١٠٩.

(٣) يُنظر: الكشاف: ٣/ ٥٢٩.

(٤) المحرر الوجيز: ٥/ ١٠٩.

(٥) يُنظر: الكشاف: ٣/ ٥٢٩. و: روح المعاني: ١٣/ ١٩٤. و: أضواء البيان: ٧/ ٤١٣.

(٦) يُنظر: جامع البيان: ٢١/ ١٨٠. و: أضواء البيان: ٧/ ٤١٣.

وكون الفعل متعدياً أظهر وأرجح والله أعلم. وثمة أسباب لترجيح هذا القول، منها:

أولاً: أن هذا القول هو رأي ابن جرير الطبري، فقد ذكر هذا القول، واقتصر عليه، وحسبك به مفسراً ومحبراً رحمه الله.

ثانياً: أن هذا القول يتماشى مع الحذف الذي سبقت الإشارة إليه في قوله: ﴿ وَصَدُّواْ ﴾. فقد ذكرتُ أن فيها حذفاً، وذكرتُ أن تقدير المحذوف: هو "غيرهم"، وقد أشار ابن كثير في تفسيره إلى هذا التقدير[1]، دلالة على كون الفعل متعدياً.

ثالثاً: اختيار الشيخ الشنقيطي هذا القول، واقتصاره عليه، فقد بسط القول فيها، وبيّن وجه الصواب ورجحه، يقول: ((قوله: ﴿ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قيل: هو من الصدود، لأن الصد في الآية لازمة. وقال بعضهم: هو من الصد، لأن صد في الآية متعدية، وعليه فالمفعول محذوف، أي صدوا غيرهم عن سبيل الله، أي عن الدخول في الإسلام. وهذا القول الأخير هو الصواب، لأنه على القول بأن صد لازمة فإن في ذلك تكراراً مع قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ لأن الكفر أعظم أنواع الصد عن سبيل الله، وأما على قول: بأن صد متعدية، فلا تكرار، لأن المعنى أنهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم، بصدهم إياهم عن سبيل الله. واللفظ إذا دار بين التأكيد والتأسيس وجب حمله على التأسيس إلا بدليل يجب الرجوع إليه))[2]. وحسبك بكلامه إيضاحاً وبياناً وترجيحاً له على غيره.

فقد جمع الطاهر ابن عاشور بين هذين القولين، فذكر معنى لطيفاً، يقول: ((والصد عن سبيل الله هو صرف الناس عن متابعة دين الإسلام، وصرفهم أنفسهم عن سماع دعوة الإسلام بطريق الأولى))[3]

وقد تمت إضافة "سبيل" إلى لفظ الجلالة "الله"؛ لبيان أن هذا السبيل موصل إليه – سبحانه – كما أنها إضافة تعظيم وتشريف، فقد ازداد هذا السبيل عظمة وتشريفاً في

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم:: ٤/ ١٨٢ .

(٢) أضواء البيان: ٧/ ٤١٣ .

(٣) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٧٣ .

إضافته إليه – سبحانه – ومن هنا عظمت جناية هؤلاء، وكبر جرمهم. فقد عظمت جنايتهم لعظيم السبيل الذي كفروا به، وصدوا غيرهم عنه، فقد صدوا عن شرعه والطريق الذي دعا عباده إلى سلوكه؛ لكونه الدين الذي ارتضاه لعباده، وأمرهم بسلوكه.[1]

وفي لفظة " السبيل" استعارة تصريحية أصلية، فقد استعير السبيل للدين، وتتجلى بلاغة هذه الاستعارة أن فيها بياناً لهذا الدين، وتصويراً دقيقاً له، وإظهاره في صورة المحسوس، فحسبك به أنه سبيل قويم، لا عوج فيه ولا اعوجاج. فهو سبيل آمن من الاعوجاج والانحراف، فيأمن معه سالكه من السقوط والهلاك، وقد استُعير السبيل للدين؛ لكون ((الدين يوصل إلى رضا الله كما يوصل السبيل السائر فيه إلى بغيته))[2].

وبعد أن ذكر – سبحانه – حال الكافرين، وعظيم جرمهم بيَّن عقابهم المترتب على صدهم عن سبيل الله في قوله: ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾، والمعنى: أنه – سبحانه – أحبط أعمالهم، وأبطلها فلم يجعل لها في الآخرة جزاء ولا وثواباً، لأنها عُملتْ في سبيل الشيطان، وعلى غير هدى من الله، ولا بصيرة. وهذا كقوله – تعالى –: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣][3]، والمراد بالأعمال هنا ((ما عملوه في كفرهم، مما كانوا يسمونها مكارم، وصلة الأرحام، وفك الأسارى، وقرى الأضياف، وحفظ الجوار))[4].

وقيل المراد بـ ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أنه – سبحانه أبطل كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ، فجعل الدائرة تدور عليهم، وعاد وبال أمرهم عليهم خسراناً.[5]

---

(١) يُنظر: المحرر الوجيز: ٥/١٠٩، و: التحرير والتنوير: ٢٦/٧٣ .

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/٧٣.

(٣) يُنظر: جامع البيان: ٢١/١٨٠، و: تفسير القرآن العظيم: ٤/١٨٢، و:معاني القرآن وإعرابه: ٥/٥. للزجاج

(٤) الكشاف: ٣/٥٢٩.

(٥) يُنظر:معالم التنزيل: ١٧٧.

ولا تعارض بين هذين القولين، فالآية تحتمل هذا كله، فقد أبطل – سبحانه – أعمالهم، وأحبطها فلم ينتفعوا بها في الآخرة، كما رد كيدهم في نحورهم، وعاد وبال مكرهم برسول الله ﷺ على أنفسهم، وتتجلى بلاغة القرآن الكريم أن عبّر عن هذه المعاني كلها بقوله: ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾.

ذكر الزمخشري دلالة لفظة ﴿ أَضَلَّ ﴾ وأصلها مبيناً بلاغتها ودلالتها على المعنى المراد، يقول: ((أضل أعمالهم: أبطلها وأحبطها، وحقيقته جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها، كالضالة من الإبل التي هي بمضيعة لا رب لها يحفظها، ويعتني بأمرها، أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم مغلوبة بها كما يضل الماء في اللبن))[1]، ولذا فكأن هذه الأعمال التي أحبطها – سبحانه – وأبطلها كأنها قد ضلت طريقها فسارت على غير هدى، ولذا فلم ينتفع بها صحابها، ولن يرى أثرها وثوابها في الدنيا ولا في الآخرة، لأن الله قد أحبطها، وما ظلمهم الله، وما ربك بظلام للعبيد، فقد كان ذلك جزاء كفرهم ومكرهم وصدهم عن سبيل الله جزاء وفاقا.

وبعد أن ذكر – سبحانه – حال الكافرين ومآلهم ذكر ما يقابله من حال المؤمنين، وحسن مآلهم في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾

وقد أشار كثير من المفسرين إلى هذا التقابل، وأشادوا به، ومن أولئك الرازي، فقد ذكر أن قوله: ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ جاء في مقابلة قوله: في حق الكافرين ﴿ وَصَدُّوا ﴾.[2]

ومنهم: البقاعي فقد صدّر هذه الآية بقوله: ((ولما ذكر أهل الكفر معبراً عنهم بأدنى طبقاتهم ليشمل من فوقهم ذكر أضدادهم كذلك ليعم من كان منهم من جميع الفرق فقال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾)).[3]

---

(١) الكشاف: ٣/ ٥٢٩.

(٢) يُنظر: مفاتيح الغيب: ٢٨/ ٣٥.

(٣) نظم الدرر: ١٨/ ١٩٧.

وكذلك الشوكاني فقد أشار إلى هذا التقابل بقوله: ((ولما ذكر فريق الكافرين أتبعهم بذكر فريق المؤمنين، فقال ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾))[1].

وأيضاً الطاهر ابن عاشور فقد ذكر أن هذه الآية تقابل فريق الذين كفروا، وهو فريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات .[2]

ومن المفسرين أخيراً: سيد قطب، فقد أشار إلى تقابل المعاني في التعبير عن الفريقين، فذكر أن قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ جاءت مقابلة لما تقدمها .[3]

وقد تعمدتُ ذكر هؤلاء المفسرين وإشارتهم إلى تقابل المعاني في هذه الآية، للدلالة على أن تقابل المعاني كان أسلوباً حاضراً في أذهان هؤلاء المفسرين، وتحت أنظارهم، ولذا فقد أشاروا إليه، وأشادوا به.

وقد تم التعبير عن هذا التقابل بأسلوب جزل، انطوى على كثير من الأسرار البلاغية، والنكت البيانية، وقد تجلت تلك الأسرار في الآية كلها، وهذه وقفة مع هذا التقابل، وإشارة إلى أسراره البلاغية، فقد استُفتحت الآية بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ، وهم الذين ((آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم))[4]، والسرُّ البلاغي في التعبير عنهم بطريق الموصول في هذا السياق هو: الإيماء إلى سبب بناء الخبر وعلته، أي لأجل إيمانهم وعملهم الصالحات.[5]

---

(١) فتح القدير: ٥/٢٩.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير: ٢٦/٧٤.

(٣) يُنظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٢٨١ .

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٤/١٨٢

(٥) يُنظر: التحرير والتنوير: ٢٦/٧٤ .

وقد ذكر أبو السعود أن قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ عام لجميع المؤمنين[1]. ولذا فالآية من إيجاز القصر، فهي ثناء عام على كل من آمن وعمل صالحاً. فقد حوت الآية على قصر ألفاظها كل المؤمنين، وشملتهم بالمدح والثناء.

كما أشار الشوكاني إلى هذا العموم، وإلى هذا الإيجاز، بقوله: ((ظاهر هذا العموم فيدخل تحته كل مؤمن من المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ولا يمنع من ذلك خصوص سببها، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب))[2].

وقوله: ﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ إطناب بعطف الخاص على العام، وقد ذكر كثير من المفسرين أسرار هذا الأسلوب، وبلاغة هذا العطف، وارتباطه – كذلك – بالسياق الذي ورد فيه، كما أن له علاقة – كذلك – بالتقابل وتأكيداً له، ففي ذكر الإيمان بما نُزل على محمد ﷺ، والتأكيد عليه مع اندراجه فيما تقدمه، ودخوله فيه إشارة إلى أنه لا يتم إيمان العبد ولا يصح إلا به[3]، كما أن في ذلك تعظيماً لهذا المنزَّل، وتنويهاً بشأنه، والإشارة إلى سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به[4]، فهو من أعظم أركان الإيمان، إشارة إلى أنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[5]، وقد أُكدتْ هذه المعاني، وجاء تقريرها في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ فقد جاءت هذه الجملة المعترضة تأكيداً لأحقية القرآن الكريم، ووجوب الإيمان به، فإذا كان هذا قدره، وتلك مكانته، فلا غرو أن يُفرد بالذكر، وأن يُخص بالحديث، ومن هنا تتبين العلاقة الوثيقة بين الإطناب بعطف الخاص على العام وبين الجملة المعترضة، ومنه تتبين أهمية دراسة البلاغة القرآنية في ضوء النظم الذي لفها، والسياق الذي جاءت فيه، فإن في ذلك كشفاً للمعنى، ودلالة على ارتباط هذه الأساليب بعضها ببعض.

---

(١) يُنظر: إرشاد العقل السليم: ٨/ ٩١

(٢) فتح القدير: ٥/ ٢٩.

(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٨٢.

(٤) يُنظر: روح المعاني: ١٣/ ١٩٥.

(٥) يُنظر: محاسن التأويل: ١٥/ ٥٣٧٢ .

كما أن إفراد القرآن بالذكر هنا مع دخوله فيما تقدمه دلالة على علو شأنه، وعلو شأن المؤمنين الذين أقبلوا عليه، وآمنوا به، فقد عرفوا قدره. كما أن ذلك يتضمن حطاً من شأن الكافرين حين أعرضوا عنه، وكفروا به، ومن هنا تتجلى بلاغة تقابل المعاني في هذا السياق، فالمدح هنا يقابله ذم هناك. فهنا إيمان، وهناك كفر. وهنا إقبال. وهناك صدٌّ وعزوف عنه.

وقد ذُكرت هذه الجملة المعترضة ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ في مقام التقابل بين الفريقين، ولذا فإن لها أثراً فيه، كما أن فيها تحقيقاً لهذا التقابل وإبرازه، وقد أشار الطاهر ابن عاشور إلى علاقة هذه الجملة في التقابل في قوله: ((وزيد في جانب المؤمنين التنويه بشأن القرآن بالجملة المعترضة في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ وهو نظير الوصف بسبيل الله في قوله: ﴿ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾. وعُبِّر عن الجلالة هنا بوصف الربوبية، زيادة في التنويه بشأن المسلمين على نحو قوله: ﴿ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾ فلذلك لم يقل وصدوا عن سبيل ربهم)).[1]

وقد تضمن قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ كثيراً من الأسرار البلاغية، وقد وُظفت تلك الأسرار في إظهار هذا التقابل وإبرازه في هذا السياق، فهي جملة معترضة بين المبتدأ والخبر، وقد سيقت لإثبات شهادة الله – عزَّ وجل – بأن القرآن المنزَّل على رسوله محمد – عليه الصلاة والسلام – هو الحق الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.[2]

وتلك حقيقة ثابتة ومقررة، وقد جاء نظم الجملة مؤكداً لهذه الحقيقة، ومقرراً لها، فقد جاءت هذه الجملة المعترضة بطريق الحصر بطريق تعريف الجزأين، فقد قُصرت الأحقية على القرآن الكريم بهذا الطريق القوي القويم، فقد تضمنت نفياً وإثباتاً، فقد أثبتت الأحقية للقرآن، ونفته عما عداه من الكتب الباطلة المنحرفة.[3]

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٧٥

(٢) يُنظر: أضواء البيان: ٧/ ٤١٦ .

(٣) يُنظر: روح المعاني: ١٣/ ١٩٥ .

تتجلى قيمة هذا الحق، وتبرز مكانته أنه من الله، وقد تم التعبير عن ذلك والإشارة إليه بقوله: ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ فقد أوحت لفظة الربوبية بأنه – سبحانه – سيد هؤلاء المؤمنين، ومالك أمرهم، المتصرف في شؤونهم كلها المدبر لأحوالهم على خير الوجوه وأكملها، ولذا أنزل عليهم خير كتبه، وأرسل لهم خير رسله، فلا غرو – والحالة هذه – أن يقبلوا عليه، ويؤمنوا به، ولا غرو – أيضاً والحالة هذه – أن يكون هذا القرآن خير الكتب، وأن يكون حقاً وصدقاً، وتلك حقيقية ثابتة ومقررة.

وبعد أن ذكر – سبحانه – عمل المؤمنين وأوصافهم، وبعد أن أثنى عليهم بها، بعد ذلك ذكر جزاءهم وعاقبة أمرهم الحميدة في قوله: ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ وقد ذُكر هذا الجزاء مقابل قوله: في الآية التي قبلها ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ فقد قابل – سبحانه – تكفير سيئات المؤمنين، وإصلاح بالهم بإضلال عمل الكافرين، والضد يجلو حسنه الضد، فإنّ مما يظهر هذا الجزاء ويبرزه أن كان من الله – سبحانه وتعالى – لعباده المؤمنين، وكان ذلك نظير عمله بالكافرين، ففي الوقت الذي أضل فيه عمل الكافرين فهو هنا في حق المؤمنين يكفر سيئاتهم، ويصلح بالهم، والجزاء من جنس العمل، وما أجمل هذا التقابل، فإن أعمال الكافرين تُبطل حتى ولو كانت أعمالاً صالحة في ظاهرها من صلة وبر ومكارم أخلاق، ((وبينا يُبطل العمل، ولو كان صالحاً من الكافرين فإن السيئة تُغفر للمؤمنين، وهو تقابل تام مطلق يبرز قيمة الإيمان وقدره عند الله وفي حقيقة الحياة))[1].

إذن فقد أظهر هذا التقابل تفضله – سبحانه – بالمؤمنين بأن محا عنهم نظير أفعالهم سيئ أعمالهم فلم يؤاخذهم بها، ولم يعاقبهم عليها، تكرماً منه وتفضلاً[2]، وللرازي وقفة نفسية مع لفظة ﴿ كَفَّرَ ﴾ ودلالاتها، يقول: ((﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي سترها، وفيه إشارة إلى بشارة ما كانت تحصل بقوله: "أعدمها و محاها"، لأن محو الشيء

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٢٨١.

(٢) يُنظر: جامع البيان: ٢١/ ١٨٢.

لا ينبئ عن إثبات أمر آخر مكانه، وأما الستر فينبئ عنه؛ وذلك لأن من يريد ستر ثوب بال أو وسخ لا يستره بمثله وإنما يستره بثوب نفيس نظيف، ولا سيما الملك الجواد إذا ستر على عبده ثوبه البالي أمر بإحضار ثوب من الجنس العالي لا يحصل إلا بالثمن الغالي)).[1]

وبعد أن ذكر- سبحانه - تكفير السيئات في حق المؤمنين أعقبه بقوله: ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ فقد أسبغ عليهم - سبحانه - النعمة، وزاد في التفضل عليهم، والإحسان بهم، فإن كان تكفير السيئات يجدون أثرها ونفعها في الآخرة، فقد خصهم - سبحانه - بنعمة أخرى ينالون نفعها، ويحسون بأثرها وتأثيرهم عليها في الدنيا، وهو إصلاح البال، والمراد بالبال: الأمر والشأن والحال[2]، وهي معان متقاربة[3]، ومرادة كلها، كما أنه يطلق كذلك على القلب، وما يخطر عليه، ذكر هذا المعنى الطاهر ابن عاشور، وأتبعه بقوله: ((وإصلاح البال يجمع الأمور كلها؛ لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن)).[4]

فإصلاح البال نعمة عظمى، ولذا فإن إبرازها في هذا السياق، وذكرها جزاء للمؤمنين نظير إيمانهم بربهم، وإقبالهم على كتابه مقابل من كفر بالله، وصد عنه دلالة على ذلك وإشارة إليه، وقد أشار سيد قطب إلى هذا المعنى، بقوله: ((وإصلاح البال نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر، والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة و الراحة والثقة والرضا والسلام، ومتى صلح البال استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس، واستمتعت بالأمن والسلام، وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع إلا أنه الأفق المشرق الوضيء الرفاف)).[5]

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٨/ ٣٥ .

(٢) يُنظر: جامع البيان: ٢١/ ١٨٢ .

(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٨٢ .

(٤) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٧٥ .

(٥) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٢٨١ .

وقد ذكر البقاعي أن هذه الآية والتي قبلها من الاحتباك، وقد بيّنه بقوله: ((ذكرُ ضلال الكفار أولاً دليلاً على إرادة الهدى للمؤمنين ثانياً، وإصلاح البال ثانياً دليل على حذف إفساده إولاً)).[1]

ولا يخفى أن للاحتباك أثراً كبيراً في إظهار التقابل وإبرازه؛ إذ هو قائم على التقابل، فما يُذكر في الأول يغني عن ذكره في الثاني؛ لحضور ذكره في البال، وروده عليه حين يُذكر ما يقابله، ولذا فإن في هذا الاحتباك تأكيداً على وجود التقابل بين هاتين الآيتين.

الموضع الثاني من مواضع التقابل في السورة في قوله – تعالى – : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾ ذكر – سبحانه – في هذه الآية ما يخص الكافرين في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ ثم ذكر مقابله في حق المؤمنين في قوله: ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾.

ومما تجدر الإشارة إليه أن تقابل المعاني هنا أوسع دائرة، وأشمل من أسلوب المقابلة في علم البديع، فالمقابلة على المصطلح البديعي في هذه الآية منحصرة بين لفظتي: " كفروا، وآمنوا". وبين لفظتي: " الباطل، والحق". بيد أن تقابل المعاني أوسع من ذلك وأشمل فهو في التركيب كله، وكأنه تقابل بين فريقين و بين صورتين.

يدل على أنه في التركيب قول الطاهر ابن عاشور: ((واتباع الباطل واتباع الحق تمثيليتان لهيئتي العمل بما يأمر به أئمة الشرك أولياءهم، وما يدعو إليه القرآن، أي عملوا بالباطل، وعمل الآخرون بالحق)).[2]

والصورة الأولى في التقابل في هذه الآية في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ ولهذه الآية صلة وثيقة بالآيتين اللتين قبلها، كما أنه امتداد لذلك التقابل، وبيان له، وقد تجلى هذا الارتباط من افتتاح صدر الآية بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، يقول البقاعي في الدلالة

---

(١) نظم الدرر: ١٨/١٩٩

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/٧٧

على المعنى، والإشارة إليه: (("ذلك" أي الأمر العظيم الذي ذُكر هنا من جزاء الطائفتين بأن أي بسبب))[1]، وقد ذكر كثير من المفسرين هذا المعنى، وأكدوا عليه في حديثهم عن معنى"ذلك". ودلالتها في التقابل، وعلاقتها بما قبلها، ولولا خشية الإطالة لذكرتُ أقوالهم في ذلك[2]، وأكتفي بذكر كلام الطاهر ابن عاشور عن صدر هذه الآية، وبيان علاقتها بما تقدمها، يقول: ((هذا تبيين للسبب الأصيل في إضلال أعمال الكافرين، وإصلاح بال المؤمنين، والإتيان باسم الإشارة لتمييز المشار إليه أكمل تمييز تنويها بها)).[3]

وقد تضمن كلامه الإشارة إلى بلاغة اسم الإشارة "ذلك" فذكر أن الغرض منه: تمييز المشار إليه، وذلك أن في الإشارة إلى الشيء تحديداً له وتمييزاً، فقد ظهر وتميز فصح معه الإشارة إليه، كما أن في ذلك تنويهاً بشأنه، والإشارة إلى عظمته وأهميته على حد – قوله تعالى –: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾.[4]

كما أن قوله: "بِأَنَّ" تأكيد لارتباط هذه الآية بما تقدمها من الآيات، وأنها تمت إليها بصلة وسبب وثيق، ولذا فكان لها أثر كبير في هذا التقابل وإبرازه، يتجلى ذلك في دلالة الباء في قوله: "بِأَنَّ" على السببية، فهذه الباء ومجرورها في محل رفع خبر لما تقدمها[5]، والمعنى: أن ما حصل لكل فريق من الفريقين فإن ذلك كان بسبب اتباع الكافرين الباطل، وبسبب اتباع المؤمنين الحق من ربهم.[6]

---

(١) نظم الدرر: ١٩٩/١٨

(٢) للوقوف على هذه الأقوال: يُنظر: جامع البيان: ١٨٢/٤، الكشاف: ٥٣٠/٣، المحرر الوجيز: ١١٠/٥، حاشية الشهاب: ٤١/٨، حاشية زادة: ٣٢٤/٤، روح المعاني: ١٩٥/١٣، فتح القدير: ٣٠/٥، محاسن التأويل: ٥٣٧٣/١٥، وغيرهم .

(٣) التحرير والتنوير: ٧٦/٢٦ .

(٤) البقرة: ٢ .

(٥) يُنظر: الكشاف: ٥٣٠/٣ .

(٦) يُنظر: التحرير والتنوير: ٧٦/٢٦ .

وأما المعنى الذي تم التقابل فيه في هذه الآية فهو في قوله﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ وقد تم مقابلته بقوله﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ فقد اتبع الكافرون ((الشيطان فأطاعوه، وهو الباطل))[1]، بخلاف المؤمنين الذين اتبعوا الحق من ربهم، والمراد به ((محمد وما جاءهم به من عند ربه من النور والبرهان))[2]

وقد تم التعبير عن هذا التقابل بألفاظ بليغة كشفته، وأبرزته في هذا السياق، فحسب ضلال الكافرين وضياعهم اتباعهم للباطل، وقد صورت لفظة " ٱلْبَٰطِلَ " بما تضمنته من إيحاء حال هؤلاء الكافرين ومآلهم، فقد عبرت عنه أتم تعبير وأصدقه، فما الظن فيمن جعل الباطل له هادياً ودليلاً، فهو يسير في الباطل، ويؤول إليه؟! بخلاف عباد الله المؤمنين فقد اتبعوا الحق، وساروا في ركابه، ولذا فقد هُدوا واهتدوا، ونالوا ثناء ربهم عليهم بسببه، وكيف لا يتبعون الحق وهو من ربهم؟!

ولذا فإن لقوله: ﴿ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ ارتباطاً وثيقاً في هذا التقابل، فقد سار هؤلاء المؤمنون على هدى وبصيرة، كيف لا وهم يتبعون أمراً صادراً من ربهم الخبير ببواطن النفوس وبما يصلحها ويزكيها؟! فهم العبيد المنقادون الطائعون لأمر ربهم وخالقهم، فهو سيدهم ومالك أمرهم، بخلاف الكافرين الذين اتبعوا الباطل، وقد ابتدعوه من عند أنفسهم، وأملته عليهم شياطينهم من الإنس والجن، وقادتهم إليه شهواتهم وأهواؤهم المنحرفة، ولذا فقد ضلوا وأضلوا، ومن هنا جاء التقابل في هذه الآية لإبراز البون الشاسع، والهوة السحيقة بين الفريقين فشتان شتان، وقد تم إظهار هذا الفرق من خلال هذا التقابل، ومن هنا تتجلى بلاغة هذا التقابل في إظهار المعاني وكشفها، وقد تم توظيف هذا التقابل في بيان ما عليه الكافرون من الضلال والضياع، وذمهم عليه، وفي بيان ما عليه المؤمنون من الانقياد والهداية، والثناء عليهم به، وقد تم هذا التقابل لحكمة بالغة، تم التعبير عنها والإشارة إليها بقوله﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾

---

(١) جامع البيان: ١٨٢/٤.

(٢) المصدر السابق: ١٨٢/٤.

الموضع الثالث من مواضع التقابل في السورة في قوله – تعالى – :

بين قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ وقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ﴾

معنيان متقابلان في هاتين الآيتين، في الأولى حث للمؤمنين أن ينصروا الله، والوعد الصادق منه – سبحانه – بنصره لهم، وتثبيت أقدامهم، وفي الآية الثانية الخزي والشقاء للكافرين، وإضلال أعمالهم.

وقد تم عرض هذين المعنيين بأبلغ قول وأجزله، بقول بليغ يتلاءم مع مضمون هاتين الآيتين، ويبين هذا التقابل ويبرزه أتم بيان، ويوضحه، ويعلي من شأنه وقدره.

فأما ما يخص المؤمنين ففي قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ فقد استُفتحت الآية بالموصول في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وفي ذلك مزيد من التودد إليهم، والترغيب لهم للإقدام على الجهاد في سبيل الله، فقد اقتضى المقام الاهتمام بالمؤمنين وشأنهم، كما اقتضى المقام – كذلك – الحفاوة بأمر الجهاد، والعناية به، ولذا فقد نُودوا في هذا المقام بأحب الأوصاف وأعلاها قدراً وشأناً، كما أن في هذا الموصول إشارة إلى أن إيمانهم بالله يقتضي هذه النصرة، وهذا الجهاد، فكيف لا ينصرون دين الله، ويعلون كلمته، ويحاربون أعداءه، وهم المؤمنون الصادقون؟! فإن هذا من متممات الإيمان ومستلزماته.[1]

إذن فقد اقتضى إيمانهم بربهم أن ينصروا دينه، ومن بدائع القرآن وعجائبه أن تم التعبير عن هذا المعنى بأداة الشرط "إنْ" في هذا السياق، بخلاف "إذا" وهاتان الأداتان وإن كانتا من أدوات الشرط إلا أن لكل واحدة منهما مقاماً تختص به دون الأخرى، فـ"إذا" تأتي في الأمور المتيقن حدوثها، المجزوم بوقوعها، بخلاف "إنْ" فتأتي في الأمور المشكوك في وقوعها، المحتمل حدوثها، فإذا تبين هذا وتقرر فكيف جاءت أداة الشرط "إنْ" في هذا المقام، والحديث هنا عن المؤمنين، وعن أمرهم بنصرة دين الله؟! فكأن المقام هنا لـ"

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ٨٤.

إذا" ولكن تم التعبير بـ" إنْ" لأسرار بلاغية مراد بيانها وتقريرها في هذا المقام. فالمقام هنا مقام جهاد وإقدام على منازلة الكافرين ومقاتلتهم. فقد تضعف النفوس. وقد تحجم ولا تقبل. وقد تخاف وتتردد. فالموقف إذن عصيب. والنفس عزيزة على صاحبها. ومن ذا يهون عليه أن تُزهق روحه. وتُقتل نفسه. ولذا جيء بهذه الأداة " إنْ" في هذا المقام: تعبيراً عن هذه المعاني. وإشارة إليها.

وقد أشار الطاهر ابن عاشور إلى هذا المعنى في حديثه عن بلاغة هذه الأداة. وسرّ اختيارها في هذا المقام. يقول: ((وجيء في الشرط بحرف " إنْ" الذي الأصل فيه عدم الجزم بوقوع الشرط. للإشارة إلى مشقة الشرط وشدته ليجعل المطلوب به كالذي يشك في وفائه به))[1]. ولكن وإن شق هذا الأمر. وعزَّ على كثير من النفوس. وإن ضعفت كثير من النفوس البشرية. وترددت أو خافت وأحجمت إلا أن المؤمن قد باع نفسه لله. ولذا فهو يقدم ولا يحجم. ويبيع نفسه رخيصة في سبيل الله. بل تهون عليه نفسه – وما هي برخيصة – في أن يقدمها نصرة لله ولدينه.

ولا يقدم على هذا الأمر إلا مؤمن بالله حق الإيمان. متيقن بوعده. متلهف على جنته. وليس هذا إلا للمؤمن. ولعلَّ هذا هو السرُّ في افتتاح الآية بنداء المؤمنين. وفي إيثار الإيمان هنا دون سواه. ومن هنا تتجلى بلاغة هذه الآيات. ويتبين منه ارتباط بعضها ببعض. وأثر كل واحد منها في الآخر.

والمراد بنصرة المؤمنين لله أي ((نصرهم لدينه ولكتابه وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا. وأن تُقام حدوده في أرضه. وتُتمثل أوامره. وتُجتنب نواهيه. ويُحكم في عباده بما أنزل الله على رسوله)).[2]

وقد تضمن قوله: ﴿ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ جزاء المؤمنين. كما أنه جواب للشرط المتقدم. كما أنه المعنى الذي يخص المؤمنين. وأحد وجهي التقابل في هذا الموضع. وقد

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٨٥.

(٢) أضواء البيان: ٧/ ٤٣٢.

تم مقابلته بقوله: في الآية التي تليها في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.
إذن فجزاء المؤمنين أن الله ينصرهم، ويثبت أقدامهم، فهو وعد منه – سبحانه – بأن ينصر المؤمنين على أعدائهم، ويظهرهم عليهم، فهو وعد منه – سبحانه – بأن ينصر دينه وأولياءه.[1]

وقد أتبع – سبحانه – هذه النصرة بتثبيت الأقدام، وهو وعد منه – سبحانه – أن يثبتهم عند القتال، ومواطن النزال على الإسلام[2]، وهو وعد لا يُخلف، فهو وعد لكم أيها المؤمنون ولن يخلفكم ما وعدكم فسيثبتكم ((تثبيتاً عظيماً بأن يملأ قلوبكم سكينة واطمئناناً، وأبدانكم قوة وشجاعة في حال القتال... وعند مباشرة جميع الأعمال، فتكونوا عالين قاهرين في غاية ما يكون من طيب النفوس، وانشراح الصدور ثقة بالله، واعتزازا به، وإن تمالأ عليكم أهل الأرض)).[3]

وبعد أن ذكر – سبحانه – وعده ونصرته للمؤمنين، وتثبيته لهم بعد ذلك ذكر مقابل هذا المعنى في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ في صدر هذه الآية مقابلة لقوله: في الآية التي قبلها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ فقد تمت مقابلة الكفر بالإيمان، وهما معنيان متضادان، ولذا صح أن يُقابل أحدهما بالآخر، وقد عُرف السرُّ البلاغي في استفتاح الآية الأولى بنداء المؤمنين بصفة الإيمان، وعُرف كذلك أثره وعلاقته بهذا التقابل، وكذلك الأمر هنا فيما يخص الفريق الآخر، فقد استُفتحت كذلك بالموصول، وتضمنت صلتها الإشارة إلى كفرهم في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ والسرُّ في ذلك – والله أعلم – الإشارة إلى أن ما حلَّ بهم من العقوبات والويلات ومن ذلك إتعاسهم وإضلال أعمالهم إنما كان ذلك بسبب كفرهم وإعراضهم عن دين ربهم، فقد عاد عليهم وبال أمرهم، وكان عاقبة أمرهم خسراً، فالجزاء من جنس العمل، فلأنهم كفروا وأعرضوا

---

(١) يُنظر: جامع البيان: ٢١/ ١٩٣.

(٢) يُنظر: المحرر الوجيز: ٥/ ١١٢

(٣) نظم الدرر: ١٨/ ٢٠٩.

عن دين ربهم، وصدوا عن سبيله، عاقبهم – سبحانه – بقوله: ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

جاء قوله: ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ مقابلاً لقوله: في الآية التي تقدمتها ﴿ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾. وقد أشار ابن كثير إلى هذا التقابل في تفسيره لهذه الآية، يقول: ((قوله: ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله – صلى الله عليه وسلم –)).[1]

كما تحدث الطاهر ابن عاشور – كذلك – عن هذا التقابل، فزاده بسطة وإيضاحاً، مبيناً كيف كان قوله: ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ في مقابل قوله: ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ يقول: ((والتعْس: الشقاء، ويطلق على عدة معان: الهلاك، والخيبة، والانحطاط، والسقوط، وهي معانٍ تحوم حول الشقاء، وقد كثر أن يُقال: تعساً له للعاثر البغيض، أي سقوطاً وخروراً لا نهوض منه، ويقابله قوله: للعاثر: لعاً له، أي ارتفاعاً... ومن بدائع القرآن وقوع ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾ في جانب الكفار، في مقابلة قوله: للمؤمنين ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾)).[2]

كما أن ذكر إضلال أعمال الكافرين وإبطالها في قوله: ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ من التقابل كذلك، فقد ذُكر أمران في حق المؤمنين وهما النصرة والتثبيت، فتم مقابلته بأمرين أيضاً في حق الكافرين وهما التعس وإضلال الأعمال.

بيَّن الطاهر ابن عاشور المراد بإحباط الأعمال، يقول: ((وإحباط الأعمال إبطالها، أي جعلها بُطْلاً، أي ضائعة، لا نفع لهم فيها، والمراد بأعمالهم: الأعمال التي يرجون فيها النفع في الدنيا؛ لأنهم لم يكونوا يرجون نفعها في الآخرة، إذ هم لا يؤمنون بالبعث، وإنما كانوا يرجون من الأعمال الصالحة رضا الله، ورضا الأصنام ليعيشوا في سعة ورزق وسلامة وعافية، وتسلم أولادهم وأنعامهم)).[3]

---

(١)تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٨٤.

(٢)التحرير والتنوير: ٢٦/ ٨٥.

(٣)التحرير والتنوير: ٢٦/ ٨٧

ولسيد قطب وقفة مع هذه الآية بيّن فيها علاقتها بما قبلها، مبيناً في الوقت نفسه تقابلها معها. يقول: ((في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ وذلك عكس النصر وتثبيت الأقدام. فالدعاء بالتعس قضاء من الله بالتعاسة والخيبة والخذلان. وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء)).[1]

الموضع الرابع من مواضع التقابل في السورة في قوله – تعالى – :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

تضمنت الآية تعليلاً للتقابل الذي تم في الآية التي قبلها، كما أن فيها تقابلاً – كذلك – أما التعليل فقد تمت الإشارة إليه بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾. ولذا فإن هذه الآية من التقابل في الصميم، لتضمنها هذين الأمرين، وقد أشار الطبري في تفسير هذه الآية إلى هذا التعليل، يقول: هذا الفعل الذي فعلناه بهذين الفريقين: فريق الإيمان، وفريق الكفر من نصرتنا فريق الإيمان بالله وتثبيت أقدامهم، وتدميرنا فريق الكفر ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يقول: من أجل أن الله مولى من آمن به، وأطاع رسوله.[2]

ومما زاد قدر المؤمنين في هذه الآية أن كان الله مولى لهم، والمراد به في هذه الآية: الولي الناصر، فهو – سبحانه – ينصر من ينصر دينه، ويكون له ولياً وحسيباً[3]. فحسب المؤمنين شرفاً وكفاية أن الله مولى لهم، فأنى لهم – والحالة هذه – أن تلحق بهم البأساء والضراء، أو أن يُنال منهم؟ فسيعلو قدرهم، ويرتفع شأنهم، كما أنه سيلوذ بحماه، وسيجد فيه الأمن والأمان، ولن ينال عدوه منه نيلاً، ولن يجد إليه سبيلاً، وقد بيّن سيد قطب هذا المعنى أتم بيان، يقول في إيحاء هذه الولاية: ((ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه وفيه الكفاية والغناء، وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير لا تخلياً من الله عن ولايته ولا تخلفاً لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده)).[4]

---

(١)في ظلال القرآن: ٦ / ٣٢٨٩ .

(٢)يُنظر: جامع البيان: ٢١ / ١٩ .

(٣)يُنظر: التحرير والتنوير: ٢٦ / ٨٩ .

(٤)في ظلال القرآن: ٦ / ٣٢٩٠ .

هذا جزء من المعنى في هذه الآية، والشطر المتعلق بالمؤمنين، ثم ذُكر بعد ذلك المعنى المقابل له المتعلق بحق الكافرين، وقد أشار الرازي في تفسير هذه الآية إلى هذا التقابل في قوله: ((وفي الكلام تباين عظيم بين الكافر والمؤمن؛ لأن المؤمن ينصره الله وهو خير الناصرين، والكافر لا مولى له)).[1]

وقد أفاد هذا التقابل تأكيد المعنى السابق وتقريره، فإن نفي الولاية عن الكافرين إثبات لها للمؤمنين؛ ولذا فلأهمية هذه الولاية، ولشديد أثرها وتأثيرها على المؤمنين فقد تم إثباتها بطريقين، وبأسلوب مباشر، وبآخر غير مباشر، فإنْ كان الكافرون لا مولى لهم فإنَّ للمؤمنين رباً هو لهم مولى ونصير.

وتأكيداً لهذه الحقيقة ﴿ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ وإثباتاً لها فقد جاء نفيها عن طريق "لا" النافية للجنس[2]، فهذا حكمه – سبحانه – على الكافرين الثابت والمقرر، فليس لهم نصير أي نصير؛ لأن من تخلى الله عنه، وخلى بينه وبين نفسه فلن يجد عوناً ولا نصيراً ((ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء، فهو في النهاية مضيع عاجز ولو اجتمعت له كل أسباب الحماية، وكل أسباب القوة التي يعرفها الناس)).[3]

ولذا فهم يلاقون الهزيمة والهوان، ومصيرهم دائماً إلى المذلة والصغار، وفي هذا الخبر إشارة إلى أنهم يُهزمون في كل لقاء، ويندحرون في كل معترك.

الموضع الخامس من مواضع التقابل في السورة في قوله – تعالى – :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾

جاء هذا الموضع بعد الآية السابقة مباشرة، فلم يكن بينهما فاصل من الآيات، فقد جاءت بعد قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾. ولهذه الآية ارتباط وثيق بالتي قبلها، كما أن لها علاقة وثيقة – كذلك – بالتقابل، فهي من آيات

---

(١) مفاتيح الغيب: ٤٤/٢٨

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: ٤٤/٢٨

(٣) في ظلال القرآن: ٣٢٩٠/٦ .

التقابل في هذه السورة. كما أنها بينته، وأظهرت – كذلك – البون الشاسع بين الفريقين، وقد خُصت هذه الآية في بيان التقابل في بيان الفرق الكبير بين الفريقين في الآخرة. بعدما خُصت الآيات السابقة في بيان الفروق بين الفريقين في الدنيا، فتم في هذه الآية بيان حال الفريقين في الآخرة من خلال هذا التقابل.[1]

وقد أشار سيد قطب في صدر هذه الآية إلى هذا المعنى، فذكر أن هذه الآية من صميم التقابل بين الفريقين. يقول: ((ثم يوازن بين نصيب الذين آمنوا، ونصيب الذين كفروا من المتاع بعدما بيَّن نصيب هؤلاء وهؤلاء فيما يشتجر بينهم من قتال ونزال، مع بيان الفارق الأصيل بين متاع ومتاع)).[2]

وقد جاء الفصل في بداية هذه الآية مؤكداً هذا المعنى ومشيراً إليه، فبين الجملتين شبه كمال الاتصال، فقد جاءت هذه الآية جواباً عن سؤال ناتج من مضمون الآية الأولى. وقد ذكر الطاهر ابن عاشور الحكمة من فصل هاتين الآيتين. يقول: ((قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ استئناف بياني جواب سؤال يخطر ببال سامع قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ عن حال المؤمنين في الآخرة، وعن رزق الكافرين في الدنيا، فبيَّن الله أن من ولايته للمؤمنين أن يعطيهم النعيم الخالد بعد النصر في الدنيا، وأن ما أعطاه الكافرين في الدنيا لا عبرة له؛ لأنهم مسلوبون من فهم الإيمان، فحظهم من الدنيا أكل وتمتع كحظ الأنعام، وعاقبتهم في عالم الخلود العذاب)).[3]

وقد بدئ في هذه الآية بذكر المؤمنين، وعاقبتهم الحميدة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾. وفي تصدير الخبر بـ" إنَّ" تأكيد له وقطع به، وأن مضمونه محقق ثابت للمؤمنين لا محاله، وفي هذا تثبيت لقلوب المؤمنين.

---

(١) يُنظر: مفاتيح الغيب: ٢٨/ ٤٥

(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٢٩٠.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٨٩.

وبشرى له بجنة عرضها السموات والأرض، والمعنى: أن الله – سبحانه وتعالى – ((يدخل الذين آمنوا بالله وبرسوله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار، يفعل ذلك بهم تكرمة على إيمانهم به وبرسوله)).[1]

وقد اكتُفي بهذه الآية من نعيم الجنة بذكر الأنهار، ويكاد يكون هذا الأمر مطرداً في كثير من الآيات التي تصف الجنة ونعيمها، فكثيراً ما يُقتصر في بيان الجنة وذكر نعيمها بالأنهار، كما في هذه الآية، وقد ذكر الرازي السرَّ في ذكر الأنهار، والاقتصار عليه، يقول: ((لأن الأنهار يتبعها الأشجار، والأشجار يتبعها الثمار، ولأنه سبب حياة العالم، والنار سبب الإعدام، وللمؤمن الماء ينظر إليه، وينتفع به، وللكافر النار يتقلب فيها، ويتضرر بها)).[2]

ولذا فحسبك بهذا النعيم، وبهذا الجزاء أجراً عظيماً، ونعيماً بالغاً للمؤمنين، يدل على عظم هذا الجزاء تنكير لفظة " جنات" فإن في تنكيرها تعظيماً لها، وبياناً لعظم ما بلغته من الكمال و الجزاء، يدل على عظمها وبلوغها الكمال في الجزاء والنعيم وصفها بقوله: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾، فحسبك بجنة تجري من تحتها الأنهار لذة ونعيماً، فليس هو نهراً ولا نهرين، وإنما أنهار، جاء بيانها في الآية التي تليها، فهي أنهار من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمرة لذة للشاربين، ومن عسل مصفى.

وحين ننظر في المعنى الذي تم فيه التقابل نجد أنه يتحدث فيه عن مآل الكافرين في الآخرة في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ والتقابل في هذه الآية خفي غير جلي، ربما لا يبدو في بادئ النظر، يدل على ذلك قول الشهاب: ((ووجه التقابل فيه غير ظاهر في بادئ النظر)).[3]

ولذا فطفق بعض المفسرين يشيرون إلى هذا التقابل، ويكشفون النقاب عنه، وقد ذكر الألوسي: ((أن قوله: ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ ﴾ في مقابل قوله: ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، لما

---

(١) جامع البيان: ٢١/ ١٩٧

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٨/ ٤٥

(٣) حاشية الشهاب: ٨/ ٤٣

فيه من الإيحاء إلى أنهم عرفوا أن نعيم الدنيا خيال باطل، وظل زائل، فتركوا الشهوات، وتفرغوا للصالحات، فكانت عاقبتهم النعيم المقيم، في مقام كريم، وهؤلاء غفلوا عن ذلك فرتعوا في دنياهم كالبهائم حتى ساقهم الخذلان إلى مقرهم من درك النيران)).[1]

ولذا فإن التقابل في هذه الآية – كما يذكر الشهاب – واقع في أحسن موقع وأبلغه، بل ثمة وجه آخر في بيان التقابل في هذه الآية، ذكره الشهاب، وانتصر له مبيناً أنه أدق مما قبله، وأكثر خفاء منه، فذكر أن هذه الآية ((من الاحتباك، فذكرُ الأعمال الصالحة، ودخول الجنة أولاً دليل على حذف الأعمال الفاسدة، ودخول النار ثانياً والتمتع ثانياً دليل على حذف التمتع والمثوى أولاً)).[2]

وقد أشار سيد قطب إلى هذا التقابل، وألمح إلى أسراره وغاياته، يقول: ((والذين آمنوا، وعملوا الصالحات يتمتعون في الأرض أحياناً من أطيب المتاع، ولكن الموازنة هنا إنما تقوم بين النصيب الحقيقي الضخم للمؤمنين – وهو نصيبهم في الجنة – والنصيب الكلي للكافرين الذي لا نصيب لهم سواه، ... فالله هو الذي يدخلهم، وهو إذن نصيب كريم علوي رفيع، جزاء على الإيمان والصلاح متناسقاً في رفعته وكرامته مع الارتفاع المنطلق من الإيمان والصلاح، ونصيب الذين كفروا متاع وأكل كما تأكل الأنعام)).[3]

وقد تضمن قوله: ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ كثيراً من الأسرار البلاغية التي كان لها الأثر في إظهار هذا التقابل وإبرازه في أبهى حلة، وأجلى صورة، فقد جاءت لفظة ﴿ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ فعلاً مضارعاً وفي ذلك إشارة إلى تجدد حدوث هذا الأمر وتكرر صدوره منهم، وفي هذا مذمة ظاهرة لهم، ومنقصة بينة، فلا هم لهم في دنياهم إلا التمتع بملاذ الدنيا وشهواتها حتى عُرفوا بها، وذُموا من خلالها، ولذلك صاروا كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً، ومن هنا جاء التشبيه في قوله: ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ تأكيداً لهذا المعنى، وإشارة إليه، وقد تضمن هذا التشبيه مزيداً من ازدرائهم والتنقص من حالهم.

---

(١) روح المعاني: ٢٠٢/١٣

(٢) حاشية الشهاب: ٤٤/٨

(٣) سيد قطب: ٣٢٩٠/٦

فحسبهم ذماً أن يكونوا مثل الأنعام فلا هم له إلا ملأ بطونهم بكل جشع ونهم. فهذا حالهم، وذلك ديدنهم. وهذا حكم رب العالمين عليهم فهم ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾. فليس ((لهم همة إلا بطونهم وفروجهم وهم لاهون ساهون عما في غد)) [1]. ولذا فقد شاركوا الأنعام في عدم التفكر والتأمل، والنظر الثاقب في عواقب الأمور، وقد حُذف وجه الشبه في هذا التشبيه؛ لإرادة المماثلة التامة بين طرفي التشبيه، وليدخل فيه كل وجه من وجوه الذم والهوان الناتجة من هذه المماثلة التامة، ولذا ذكر المفسرون وجوهاً عدة لوجه الشبه بينهما، فهم يأكلون كما تأكل الأنعام ((أكلاً مجرداً من فكرة ونظر، فالتشبيه بالمعنى إنما وقع فيما عدا الأكل من قلة الفكر وعدم النظر)). [2]

وقد وقف الرازي مع هذا التشبيه فذكر وجوهاً عدة في وجه الشبه بينهما، فذكر أنه ((يتحمل وجوهاً:

١ـ أن الأنعام يهمها الأكل لا غير، والكافر كذلك، والمؤمن يأكل ليعمل صالحاً، ويقوى عليه.

٢. الأنعام لا تستدل بالمأكول على خالقها، والكافر كذلك.

٣. الأنعام تُعلف لتسمن، وهي غافلة عن الأمر لا تعلم أنها كلما كانت أسمن كانت أقرب إلى الذبح والهلاك، وكذلك الكافر، ويناسب ذلك قوله ﴿ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾)) [3]، ولذا فإن من بلاغة القرآن أن حذف وجه الشبه؛ ليشمل ذلك كله وغيره مما لا ينافي غرض الآية، ويحقق – كذلك – الازدراء بهؤلاء الكافرين، والتنقص بهم وبقدرهم.

وقد ذكر سيد قطب كلاماً جميلاً عن إيحاء هذا التشبيه ودلالاته، يقول: ((وهو تصوير زري يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه، ويلقي ضلال الأكل الحيواني الشره،

---

(١) معالم التنزيل: ٤/ ١٨٠.

(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ١١٣

(٣) مفاتيح الغيب: ٢٨/ ٤٥.

والمتاع الحيواني الغليظ بلا تذوق وبلا تعفف عن جميل أو قبيح، إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة ولا اختبار، ولا حارس عليه من تقوى، ولا رادع عنه من ضمير)). [1]

ولذا جاء ختام الآية بقوله: ﴿ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ تأكيداً لما تقدم، وفي ذكر هذا المعنى من خلال الجملة الاسمية إشارة إلى ثبات هذا الأمر ودوامه، فالنار مثواهم يصيرون إليها بعد مماتهم، ويُخلدون فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء الله، فمن كان هذا حاله في الدنيا وذلك همه فلا غرو أن تكون النار مثواه خالدا مخلدا فيها، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

الموضع السادس من مواضع التقابل في السورة في قوله – تعالى – :

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾

جاء التقابل في هذه الآية ليبين البون الشاسع بين الفريقين، وأن بينهما كما بين السماء والأرض، وقد تم ذكر هذه الحقيقة وعرضها بأبلغ أسلوب وأجزله، فقد جاء بيان هذا التقابل وذكره من خلال أسلوب الاستفهام في قوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾. وذكر التقابل بهذا الأسلوب تلوين في الخطاب، وتنوع بعدما كان التقابل في الآيات السابقة يُساق بأسلوب خبري، ولا شك أن في هذا التنوع تفنناً في الخطاب، كما أن فيه تجديداً لنشاط السامع، واستحواذاً على عقله واهتمامه من خلال هذا الأسلوب. [2]

وقد أفاد الاستفهام في الآية معنى التقرير والإنكار، ففيه ((تقرير لتباين حالي فريقي المؤمنين والكافرين، وكون الأوليين في أعلى عليين، والآخرين في أسفل سافلين، وبيان لعلة ما لكل منهما في الحال)) [3]، إذن فقد دل الاستفهام على التقرير، وهو تقرير على شيء متفق عليه، وهو نفي المعادلة بين هذين الفريقين. [4]

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٢٩٠

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩٣.

(٣) إرشاد العقل السليم: ٨/ ٩٥.

(٤) يُنظر: المحرر الوجيز: ٥/ ١١٣.

ولأن هذا المعنى أمر متفق عليه، ولا خلاف فيه لذلك كله تُرك الجواب؛ لأنه معلوم، كل يقرُّ به، ويذعن له، فالأمر لا يحتاج إلى جواب ولا إلى بيان على حدِّ قول الله – تعالى –: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.[1]

وأما المعنى الآخر الذي أفاده الاستفهام في قوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾ فهو معنى الإنكار، إنكار لمن يظن استواء الفريقين[2]، والمعنى: ((أنه لا يستوي من كان على يقين من ربه ولا يكون كمن زين له سوء عمله وهو عبادة الأوثان، والإشراك بالله، والعمل بمعاصي الله، واتبعوا أهواءهم في عبادتهما، وانهمكوا في أنواع الضلالات بلا شبهة توجب الشك، فضلاً عن حجة نيرة))[3]، إذن فثمة بون شاسع بين الفريقين، ولا سواء بينهما، ومن ثم جاء الاستفهام بهذا المعنى لينكر كل الإنكار على من ظن التسوية بينهما والقرب والالتقاء، فشتان مابين الفريقين في الحال والمآل، ولذا فإن ((الفرق بين الفريقين بيّن للعاقل المتأمل بحيث يحق أن يسأل عن مماثلة الفريقين سؤالَ من يعلم انتفاء المماثلة، وينكر على من عسى أن يزعمها))[4]، كما أن انتفاء المماثلة بهذا الأسلوب كناية عن الفضل والمنزلة، ولا يخفى أن المراد ((بالفضل ظاهر وهو الفريق الذي وقع الثناء عليه))[5]، وهم من تم الحديث عنهم بقوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.

وأما الفريق الأول فقد تم الحديث عنهم بقوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، والمعنى أنهم على ((بصيرة ويقين في أمر الله، ودينه وبما أنزل في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة))[6]، والمراد به محمد ﷺ فهو الذي

---

(١) الزمر: ٩

(٢) يُنظر: حاشية الشهاب: ٨ / ٤٤.

(٣) فتح القدير: ٥ / ٣٤

(٤) التحرير والتنوير: ٦ / ٩٣.

(٥) المصدر السابق: ٦ / ٩٣.

(٦) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ١٨٥.

على بينة من ربه، وعلى بصيرة من أمره[1]. والمراد به – كذلك – المؤمنون جميعاً، فهم على هدى من ربهم، ثابتون على دينه، واثقون أنهم على الحق، فلا جرم أن لهم الظفر في الدنيا، والنجاة في الآخرة، والفوز بالجنة، كيف لا وهم على بينة من ربهم وبرهان؟![2]

وقد دل على تمكن هذا الفريق بهذه البينة، وانتفاعهم بها حرف الجر "على" بدلالته على الاستعلاء. ولذا فإن في قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ استعارة تبعية بالحروف، فحرف الجر "على" مستعمل في غير ما وُضع له في هذه الآية؛ لأن البينة هنا لا تصلح للاستعلاء على وجه الحقيقة. ولكن استُعير الاستعلاء لمن كان على بصيرة من أمره، ولمن أقبل على هذه البينة، وتمكن منها، وثبت عليها، وذلك بجامع الاستعلاء في كلٍّ، فقد شُبهت البينة بالاستعلاء الحقيقي في هذا التمكن، واستُعمل فيها حرف الجر "على" على سبيل الاستعارة التبعية بالحروف.

وتكمن بلاغة هذه الاستعارة أن فيها دلالة على أن من كان على بينة من ربه بأنه قد استعلى على هذه البينة، وتلك البصيرة، وتمكن منها، فكأنه راكب على جواد يصرفه حين يشاء، ويركضه حيث أراد، دلالة على قوته ومنعته، وسطوع برهانه، واستعلائه على من دونه ممن لا برهان له ولا بصيرة، ولذا فهو يبصر الحقائق، ويدرك الأمور على حقيقتها، فقد تبددت أمام نوره الحجب؛ لأنه ينظر من علٍ، فقد أبصر نور الحق والهدى، فسار في طريق الإيمان على بينة وهدى، ومن هنا فقد علت مكانته، وسمت منزلته.[3]

ولا غرو أن يكون بهذه المنزلة، وتلك المكانة بسبب هذه البينة، كيف لا؟! وهي بينة من الله – سبحانه وتعالى – ولذا فإن في قوله: "مِّن رَّبِّهِۦ" تأكيداً لقوة هذه البينة، وسطوع أمرها، وقوة برهانها؛ لأنها من الله الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم سرائر هذه النفوس وضمائرها، فهو العالم بما يصلح شأنها، ويهذب أمرها، فإذا كانت هذه البينة من الله الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم سرائر هذه النفوس وضمائرها، فهو العالم بما يصلح

---

(١) يُنظر: المحرر الوجيز: ٥/ ١١٣.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩٣.

(٣) يُنظر: من بلاغة النظم القرآني: ٣٦٧.

شأنها، ويهذب أمرها، فإذا كان الأمر كذلك فستكون هذه البينة ((أقوى وأظهر، وستكون أعلى وأبهر)) [1].

ولذا فإن وصف البينة بكونها من الله تقوية لها، وبيان لشديد أثرها وتأثيرها عليهم. ومعنى كونها من الله: أي ((إن الله أرشدهم إليها، وحرك أذهانهم فامتثلوا، وأدركوا الحق. فالحجة حجة في نفسها، وكونها من الله تزكية لها، وكشف للتردد فيها، وإتمام لدلالتها، كما يظهر الفرق بين أخذ العلم عن متضلع فيه، وأخذه عن مستضعف فيه، وإن كان مصيباً)) [2].

إذن فهذا هو الفريق الأول وهو من كان على بينة من ربه، وقد تم مقابلته بفريق آخر في قوله: ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ جاء هذا التقابل ليبين أن ثمة بوناً شاسعاً، وفرقاً فارقاً بين الفريقين، فمحال أن يكون هذا الفريق كالفريق الآخر ي الحال والمآل، فشتان شتان بين من كان على بينة من ربه، وبين من زُين له سوء عمله، واتبع هواه.

وقد تم التعبير عن هذا الفريق بأبلغ أسلوب وأجزله، ليكشف حال هذا الفريق. وليبين عواره ومفارقته التامة للفريق الأول. يتجلى ذلك من إسناد الفعل " زُين" إلى مالم يُسم فاعله. ففي ذلك سرٌّ بلاغي انطوى تحته. وقد ذكر هذا السرَّ وبينه الطاهر ابن عاشور في قوله: ((وبُني الفعل "زُين" للمجهول، ليشمل المزينين لهم من أئمة كفرهم، وما سولته لهم أيضاً عقولهم الآفنة من أفعالهم السيئة اغتراراً بالإلف أو اتباعاً للذات العاجلة، أو لجلب الرئاسة، أي زُين لهم مُزين سوء عمله، وفي هذا البناء إلى المجهول تنبيه لهم أيضاً ليرجعوا إلى أنفسهم فيتأملوا فيمن زين لهم سوء أعمالهم)) [3].

كما أن في إسناد الفعل " زُين" إلى مالم يُسم فاعله إشارة إلى أنه مغلوب على أمره، لا حول له ولا قوة، يتصرف فيه الشيطان كيف يشاء، ويوجه حيث أراد. ولذا فهو يُحسِّن

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٨٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩٣.

(٣) المصدر السابق: ٢٦/ ٩٤.

لـه قبيح أفعاله، ويُزيّنها في عينيه، ولذا فهو مقيم عليها، ولا ينفك عنها، وذلك هو الخسران المبين.

وليت أمره وقف عند هذا – وما هو بهين – بل زاد على ذلك سوءاً على سوء حين اتبع هواه، وقد جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في قوله: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾، والمتأمل لنظم الآية يجد تنوع الأسلوب القرآني في الحديث عن هذا الفريق بين الإفراد والجمع، فقد جاء الحديث أولا بصيغة الإفراد في قوله: ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ ثم جاء بيان حالهم ثانياً بصيغة الجمع في قوله: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾. وقد ذكر الفراء السرَّ في هذه المغايرة وسببها في قوله: ((ولم يقل: (واتبع هواه)؛ وذلك أن "مَن" تكون في معنى واحد وجميع، فرُدت أهواؤهم على المعنى)). [1]

وقد تلقَّف الرازي كلام الفراء وزاده بسطة وبياناً، كاشفاً في الوقت نفسه سرَّ هذه المغايرة وسببها، يقول: قوله: ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ بصيغة التوحيد محمول على لفظة "مَن". وقوله: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ محمول على معناه فإنها للجميع والعموم، وذلك لأن التزيين للكل على حد واحد، فحُمل على اللفظ، لقربه منه في الحس والذكر، وعند اتباع الهوى كل واحد يبتع هوى نفسه، فظهر التعدد فحُمل على المعنى)). [2]

ولا يخفى أن لقوله: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ صلة وثيقة بالتقابل، كما أنها جزء منه، فقد جاءت لتبين تمام المفارقة بين الفريقين، فإنْ كان الفريق الأول على بينة من ربه فإنَّ هذا الفريق قد زُيّن له سوء عمله، ليس هذا فحسب بل زاد على ذلك بأن اتبع هواه.

وقد أشار الرازي إلى علاقة قوله: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ بالتقابل، مبيناً أثرها في إظهار التقابل وبيانه، يقول: ((وقوله: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ تكملة، وذلك أن من زُين له سوء عمله، وراجت الشبهة عليه في مقابلة من يتبين له البرهان وقبِلَه، لكن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر في الأمر، ويرجع إلى الحق، فيكون أقرب إلى مَن هو على البرهان، وقد يتبع

---

(١) معاني القرآن: ٣/ ٥٩.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٨/ ٤٦.

هواه ولا يتدبر في البرهان، ولا يتفكر في البيان، فيكون في غاية البعد، فإذا حصل للنبي والمؤمن مع الكافر في طرفي التضاد وغاية التباعد حتى قد مدهم بالبينة، والكافر له الشبهة، وهو مع الله، وأولئك مع الهدى)) .[1]

إذن فشتان شتان بين الفريقين، ومن هنا جاء التقابل؛ لإبراز هذه المفارقة، وعرضها بأوضح صورة وأبينها، فمحال أن يكون هؤلاء كهؤلاء فهم ((يختلفون حالاً ومنهجاً واتجاهاً، فلا يمكن أن يتفقوا ميزاناً، ولا جزاء، ولا مصيراً)) .[2]

الموضع السابع من مواضع التقابل في السورة في قوله – تعالى – :

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

جاءت هذه الآية بعد آية التقابل السابقة مباشرة، لتشير إلى هذه المفارقة، ولترسي قواعدها وتثبتها، وتجعلها حقيقة مقررة لا تقبل جدالاً ولا نقاشاً، ولذا فإنَّ هذه الآية صورة من صور التفرقة، ومثال على مابين الفريقين من البون الشاسع في المصير والحال.

وقد أشار كثير من المفسرين إلى التقابل في هذه الآية وبلاغته، فأشار البغوي في صدر تفسيره لهذه الآية للتقابل بقوله: ((أي مَن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار)) .[3]، وللزمخشري كلام نفيس في ذكر المقابلة وإظهارها بين الفريقين، يقول: ((فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار؟! فإن قلتَ: فلِمَ عُرِّي من حرف الإنكار[4]؟ وما فائدة التعرية؟ قلتُ: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة

---

(١) المصدر السابق: ٤٦/٢٨ .

(٢) في ظلال القرآن: ٦ / ٣٢٩١ .

(٣) معالم التنزيل: ٤ /١٨١ .

(٤)يقصد بحرف الإنكار: همزة الإنكار في قوله (كمن هو...).

من يسوّي بين المتمسك بالبينة، والتابع لهواه، وأنه بمنزلة مَن يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يُسقى أهلها الجحيم)) .[1]

كما ذكر الرازي في تفسيره لهذه الآية صلتها بالتقابل، وعلاقتها بالآية التي قبلها، يقول: ((لما بيّن الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بيَّن الفرق بينهما في مرجعهما ومآلهما، وكما قدَّم مَن على بينة في الذكر على من اتبع هواه قدَّم حاله في مآله على حال من هو بخلاف حاله)) .[2]

كما أشار – كذلك – سيد قطب إلى هذا التقابل وذلك التباين في قوله: ((أهؤلاء كهؤلاء؟! إنهم يختلفون حالاً ومنهجاً واتجاهاً، فلا يمكن أن يتفقوا ميزاناً، ولا جزاء، ولا مصيراً، وهذه صورة من صور التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء في المصير)) .[3]

وقد تعمدتُ الإطالة في ذكر أقوال المفسرين، وإشارتهم إلى هذا التقابل؛ لكون التقابل الموضوع الرئيس لهذا البحث، فهو من صميم الدارسة، كما أن فيه تأكيداً لهذا التقابل، وحشد الأدلة له من أقوال المفسرين؛ للتأكيد على أن هذا التقابل يكاد يكون أسلوباً ظاهراً في السورة كلها، فقد قامت السورة على التقابل في بيانه وإبرازه، كما أن في ذلك إشارة من طرف خفي إلى أن هذا التقابل كان حاضراً في أذهان هؤلاء المفسرين، فقد كان تحت نظرهم، ولذا أولوه مزيداً من العناية والبيان.

أما الصورة الأولى للفريقين فقد تم التعبير عنها، وبيانها بقوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ . وقد تم ذكرهم بأبرز أعمالهم وأشرفها وفي التقوى في قوله: "ٱلْمُتَّقُونَ ". وفي ذكر الجزاء الذي ينتظرهم والنعيم الذي سيؤولون إليه، وينعمون فيه وهي الأنهار بأنواعها، فالطرف الأولى من طرفي التقابل هم

---

(١) الكشاف: ٣/ ٥٣٣ .

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٨/ ٥٠ .

(٣) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٢٩١ .

المتقون الذين عبدوا الله حق عبادته، فجعلوا بينهم وبين عذابه وقاية بأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، ولذا نالوه هذه المنزلة الرفيعة، وأدركوا هذا النعيم العظيم.[1]

وأما جزاؤهم ونعيهم فلهم في الجنة ﴿ أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ . فهي أنهار وليست نهراً واحداً، بل أنهار متعددة ومتنوعة؛ ليزداد نعيمهم، ويعظم حبورهم وسرورهم، ولتكمل لهم اللذة، فنهر من ماء غير آسن، أي غير متغير الريح والطعم، ومنه قولهم: ((قد أسن ماء هذا البئر إذا تغير ريح مائها فأنتنت)) .[2]

وأنهار أخرى من لبن لم يتغير طعمه، وقد ذكر المفسرون تعليلاً نفيساً في عدم تغير طعم لبن الجنة، يقول ابن جرير الطبري في ذلك: ((لم يتغير طعمه؛ لأنه لم يُحلب من حيوان، فيغير طعمه بالخروج من الضروع، ولكنه خلقه الله ابتداء في الأنهار، فهو بهيئته لم يتغير عما خلقه الله)) .[3]

وقد ذكر الزمخشري أن في قوله: ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ تعريضاً بلبن الدنيا، وما يطرأ عليه من التغير، يقول: ((﴿ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ ﴾ كما تتغير ألبان الدنيا، فلا يعود قارصاً ولا حاذراً ولا ما يكره من الطعوم))[4]. فشتان شتان مابين لبن الدنيا ولبن أهل الجنة.

وثمة أنهار أخرى، فهناك أنهار ﴿ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ فهم يتلذذون بشربها فليس فيها ((ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع ولا آفة من آفات الخمر))[5]، بخلاف خمر الدنيا النتن، الذي يذهب العقل، ولا يجد المرء فيه لذة، بل يتجرعه ولا يكاد يسيغه.

---

(١) جامع البيان: ٢١/ ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق: ٢١/ ٢٠٠.

(٣) المصدر السابق: ٢١/ ٢٠١.

(٤) الكشاف: ٣/ ٥٣٤

(٥) الكشاف: ٣/ ٥٣٤

وأما الأنهار الأخرى فهي أنهار ﴿ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾. وحسبك بالعسل المصفى لذة ونعيماً، فهو مصفى: لأنه لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره، فقد صُفي من الأقذاء التي تكون في عسل الدنيا التي قد تعلق به من الشمع وغيره، ولذا فهو لا يصفو إلاّ بعد التصفية، بخلاف عسل أهل الجنة، فهو مصفى ابتداء.[1]

وثمة وقفات مع نظم هذه الآية في حديثها عن الأنهار:

الوقفة الأولى: مجيء لفظة "أنهار" نكرة في المواضع الأربعة كلها، وقد أفاد هذا التنكير التعظيم، فهي أنهار عظيمة، بلغت الغاية من المكانة واللذة، وقد دل على هذه التعظيم الأوصاف التي نُعتت بها هذه الأنهار، ولذا فقد تضافر التنكير، وهذه الأوصاف في الدلالة على عِظم الأنهار، ولذا كانت من أجل النعم التي يتنعم بها المؤمنون في الجنة، وأنْ كانت جزاء للمتقين.

الوقفة الثانية: أن هذه الأنهار كلها قد بلغت الغاية من الكمال واللذة، وخلصت كلها من الشوائب التي قد تعلق بها، فالماء غير آسن، واللبن لم يتغير طعمه، والخمر لذة للشاربين، والعسل مصفى، فكما أنها بلغت الغاية وخلصت من الشوائب، فإنَّ فيها – كذلك – تعريضاً بماء الدنيا الآسن، وبلبنه المتغير، وبخمره المذهب للعقول، وبعسله المغشوش غير المصفى.

ولذا فقد تضمن هذا النظم نفياً وإثباتاً من خلال أسلوب التعريض، فقد نفى الشوائب والعيوب عن أنهار الجنة، وأثبتها لأنهار الدنيا، فشتان شتان مابين أنهار الدنيا، وأنهار الجنة!، وليس بينهما من شبه إلاّ في الأسماء.

الوقفة الثالثة: المتأمل لنظم الآية في حديثها عن الأنهار، يجد أنها جاءت على ترتيب بديع له دلالاته، فُذكر الماء أولاً، ثم اللبن ثانياً، ثم الخمر ثالثاً، ثم خُتم بالعسل، فما سرُّ هذا الترتيب؟! كشف سرَّ هذا الترتيب وبلاغته الألوسي، يقول: ((وبُدئ بالماء، لأنه في الدنيا مما لا يُستغنى عنه، ثم اللبن إذا كان يجري مجرى المطعم لكثير من العرب في

---

(١) يُنظر: جامع البيان: ٢١/٢٠١. و: الكشاف: ٣/٥٣٤.

كثير من أوقاتهم، ثم بالخمر؛ لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوقت النفس إلى ما يُلتذ به، ثم بالعسل؛ لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم، فهو متأخر في الرتبة)) .[1]

وبعد أن ذكر – سبحانه – شراب أهل الجنة بيَّن طعامهم في قوله: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ ، والمتأمل لنظم هذه الآية يجد المغايرة بينها وبين الحديث عن الأنهار، فقد جاءت لفظة "الثمرات" معرفة، والتعريف فيها للجنس، والمعنى: أن لأهل الجنة في الجنة جميع أجناس الثمرات وأصنافها، يأكلون منها، ويتنعمون فيها، ويتلذذون بها.

وقد أكد هذا المعنى وأشار إليه لفظة "كل" فإنَّ فيها الدلالة على الإحاطة والكثرة، وفي ذلك توافق مع دلالة التعريف على الجنس، ولذا فإنَّ للمؤمنين في الجنة جميع أنواع الثمرات مما علموه في الدنيا، ومما لم يعلموا مما خلقه الله لهم في الجنة.[2]

ولم يقف نعيمهم عند هذا فزاد عليهم ربهم تكرماً وتفضلا أن أحلَّ عليهم مغفرته ورضوانه في قوله: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي فلهم مع ذلك كله وزيادة عليه مغفرة ذنوبهم.

وقد دل على عِظم هذه المغفرة تنكيرها، فإنها مغفرة عظيمة لا يُقدر قدرها، وقد زاد هذا المغفرة قدراً وشرفاً وصفها بأنها من "ربهم"، فقد جاء هذا الوصف تأكيداً ((لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أن كائنة من ربهم)) .[3]

هذا ما يتعلق بجزاء المؤمنين في الجنة ونعيمهم، وقد تم بيان مقابلها بالفريق الآخر، وهو بيان جزاء الكافرين وعقابهم في الآخرة في قوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ ، ومن هنا يتجلى التقابل بين الفريقين، ويظهر الفرق في مصير كل فريق منهم، فشتان بين المؤمنين ونعيمهم، وبين الكافرين وجحيمهم!

---

(١) روح المعاني: ١٣/ ٢٠٥ .

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩٨ .

(٣) إرشاد العقل السليم: ٨/ ٩٦

يقول الزجاج في معنى قوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ يقول: ((والمعنى أفمن كان على بينة من ربه، وأعطي هذه الأشياء كمن زُين له سوء عمله وهو خالد في النار)) [1]، إشارة منه إلى ذكر الكافرين في هذه الآية جاء مقابل ذكر المؤمنين وجزائهم .

كما ذكر الطاهر ابن عاشور هذا التقابل، وزاده بسطة وبياناً، يقول: ((وقوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ كلام مستأنف مقدر فيه استفهام إنكاري، دل عليه ما سبق من قوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ . والتقدير: أكمن هو خالد في النار. والإنكار متسلط على التشبيه الذي هو بمعنى التسوية، والمقصود: بيان البون بين حالي المسلمين والمشركين بذكر التفاوت بين حالي مصيرهما... ولقصد زيادة تصوير مكابرة من يسوي بين التمسك ببينة من ربه وبين التابع لهواه، أي هو أيضاً كالذي يسوي بين الجنة ذات تلك الصفات وبين النار ذات الصفات ضدها)) [2]، إذن فهذا العذاب، وذلك الشقاء لأهل النار مقابل النعيم لأهل الجنة، فهي برمتها مقابل لما تقدمها.

وحين ننظر في الآية كلها، ونتأمل في أجزائها، وندقق النظر فيها نجد أن لكل جزء من نعيم المؤمنين له ما يقابله في جزاء الكافرين. فقد ذُكرت الجنة في قوله: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ فذُكرت النار في مقابلها في قوله: ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ . وكما أن الجنة تجري فيها تلك الأنهار، ففي النار ماء حميم يقطع الأمعاء تقطيعاً، فشتان ما بين أنهار يتنعم بها المؤمنون، ويتلذذون وبين ماء حميم يقطع أمعاءهم. فهو ماء حار شديد الحر قد انتهى حره، فقد سعرت عليه جهنم منذ خُلقت، ولذا فهو يشوي وجوههم. وانحازت منه فروة رؤوسهم. ولذا فهو يقطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء ومن ثم يخرج الماء من أدبارهم. [3]

وقد ذكر الرازي أن قوله: ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ جاء مقابل قوله: في حق المؤمنين ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ ثم بيّن وجه هذا المقابلة، يقول: ((وتقطيع الأمعاء في مقابلة

---

(١) معاني القرآن وإعرابه: ٥/ ١٠

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩٥

(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٨٦، و: محاسن التأويل: ٤/ ١٨١ .

المغفرة، لأنا بينا على أحد وجوه المغفرة التي هي في الجنة هي تعرية أكل الثمرات لما يلزمه من قضاء الحاجة والأمراض وغيرها، كأنه قال للمؤمن أكل وشراب مطهر طاهر لا يجتمع في جوفهم فيؤذيهم، ويحوجهم إلى قضاء الحاجة، وللكافر ماء حميم أول ما يصل إلى جوفهم يقطع أمعاءهم، ويشتهون خروجه من جوفهم)) .[1]

وجميل منه هذا البيان لهذه المقابلة، بيد أن في كلامه تفصيلاً لأجزاء هذه المقابلة، والأولى في هذا التقابل أنه صورة متكاملة لصورة أخرى متكاملة، كما سبق تقريره وبيانه، ولذا فإن الأقرب إلى الصواب في نظري هو رأي ابن عاشور، فيرى أن قوله: ﴿ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ أنها كلها مقابل لما تقدمها من غير تفصيل في أجزاء هذا التقابل. يقول: ((وقوله ﴿ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا ﴾ جيء به لمقابلة ما وصف من حال أهل الجنة في قوله: ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ . أي إن أهل النار محرمون من جميع ما ذُكر من المشروبات، وليسوا بذائقين إلا الماء الحميم الذي يقطع أمعاءهم بفور سقيه، ولذلك لم يعرج هنا على طعام أهل النار)) .[2]

الموضع الثامن من مواضع التقابل في السورة في قوله – تعالى – :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

والمتأمل في هذا الموضع يجد أن التقابل فيها جاء إثر بيان حال كل من الفريقين لحظة استماع القرآن من عند رسول الله ﷺ، ومدى إفادته منه، وانتفاعه به، فقال – سبحانه – ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ . وفي هذا إشارة إلى أن هؤلاء المنافقين كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ، ويسمعون تلاوته للقرآن، بيد أن هذا الحضور لا يفيدهم، ولا ينتفعون به.[3]

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢٨/ ٥٠ .

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩٧ .

(٣) ينظر: جامع البيان: ٢١/ ٢٠٥ .

ولذا فهم يبادرون المؤمنين بقولهم: ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾. وقد يكون المراد من سؤالهم الاستعلام حقيقة، وفي ذلك إشارة إلى بلادتهم، وقلة فهمهم لما يسمعونه من رسول الله ﷺ، ولذا فهم يستعيدونه من الذين علموه، ويسألونهم عنه.[1]

وقد يكون سبب هذا السؤال إعراضهم عن كلام رسول الله ﷺ، لذا فهم لم يلقوا له بالاً؛ تهاوناً به واستخفافاً، كما أن فيه إشارة إلى جهلهم ونسيانهم، وإلى بيان حالهم عند رسول الله ﷺ.[2]

وقد يكون الغرض من سؤالهم غير الحقيقة، وغرضهم من ذلك الاستهزاء والسخرية برسول الله ﷺ، وبما يقوله، فمن شدة خبثهم وسوء طويتهم يظهرون للمؤمنين الاهتمام من خلال هذا السؤال، ومن ثم يقولون لإخوانهم إذا خلوا بهم إنما نحن مستهزئون.[3]

وهذا القولان – في نظري – لا تعارض بينهما؛ فالآية تحتمل هذه المعاني كلها، وفي كل معنى منها إشارة إلى قبح موقف هؤلاء المنافقين، وما تنطوي عليه قلوبهم من الحقد والاستهزاء برسول الله ﷺ، وبالقرآن الكريم.

ولذا عاقبهم – سبحانه – بصنيع أفعالهم بقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وهذا شاهد التقابل في هذه الآية، فهذه هي الصورة الأولى، وهي صورة المنافقين، وقد تم مقابلتها بموقف المؤمنين، فذكر – سبحانه – أولاً جزاء المنافقين بسبب موقفهم من الرسول ﷺ ومن القرآن، وقد تم ذكره وعرضه بقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وقد تم بيان جزائهم بأبلغ قول وأجزله، ولذا فقد تضمنت على كثير من الأسرار البلاغية لتدل على شناعة فعلهم، وعظيم عقابهم، فقد جاء ذكر جزائهم مفصولاً عن الجملة التي قبلها؛ وذلك أن بين الجملتين شبه كمال الاتصال، فقد أثار مضمون الجملة التي قبلها سؤالاً لدى المتلقين بسبب موقف المنافقين

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٨٧.

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٠٠.

(٣) يُنظر: روح المعاني: ١٣/ ٢٠٦. و: التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٠١.

من القرآن، وبسبب سؤالهم لأهل العلم عما قاله رسول الله ﷺ. فقد أثار ذلك كله سؤالاً عن مصير هؤلاء المنافقين وعن جزائهم. فجاءت هذه الجملة إجابة عن ذلك كله، ومفصحة عنه. ولذا تم الفصل بين الجملتين؛ للإشارة إلى هذه المعاني كلها، والتأكيد عليها.[1]

وقد تم التعبير عن هؤلاء المنافقين باسم الإشارة في قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى توغل هؤلاء المنافقين في النفاق، فقد بلغوا فيه شأواً عظيماً. كما أن فيه إشارة إلى بعدهم عن الهدى وعن القرآن، فما أبعدهم عن هدايته، والانتفاع به! فلشدة توغلهم في الشرك والنفاق، ولشدة بعدهم عن الإيمان والقرآن تمت الإشارة إليهم بالأداة البعيدة إشارة إلى هذه المعاني كلها، والله أعلم بمراده.

جاء التعبير عن هذا الفريق باسم الموصول وصلته في قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ وفي هذا ملحظ بلاغي بليغ: وذلك أن التعريف بالموصول يأتي في المقامات التي يكون المتكلم والمخاطب عالمين بصلة الموصول، ومقرين بها، وقد ذكر الطاهر ابن عاشور السرَّ في ذلك وبينه أتم بيان في قوله: ((وجيء بالموصول وصلته خبراً عن اسم الإشارة، لإفادة أن هؤلاء المتميزين بهذه الصفات هم أشخاص الفريق المتقرر بين الناس أنهم فريق مطبوع على قلوبهم، لأنه قد تقرر عند المسلمين أن الذين صمّموا على الكفر هم قد طبع الله على قلوبهم، وأنهم متبعون لأهوائهم فأفادت أن هؤلاء المستمعين زمرة من ذلك الفريق)).[2]

فهؤلاء المنافقون قد طبع الله على قلوبهم، وقد جاء اتباعهم لأهوائهم نتيجة طبعية لهذا الطبع، فقد ((رفضوا أمر الله، واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم، فهم لا يرجعون مما هم عليه إلى حقيقة ولا برهان)).[3]

---

(١) يُنظر: التحرير والتنوير: ١٠١/٢٦.

(٢) المصدر السابق: ١٠١/٢٦.

(٣) جامع البيان: ٢٠٤/٢١.

هؤلاء هم المنافقون، وذاك جزاؤهم وقد تم ذكر ما يقابلهم من المؤمنين في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾. وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية ذُكرتْ مقابلة لموقف المنافقين[1]. وقد أظهر هذا التقابل موقف المؤمنين، وبين جزاءهم عند ربهم. يدل على ذلك قول سليمان العجلي إشارة إلى هذا التقابل، يقول: ((لما بيّن – عزّ وجل – أن المنافق يسمع ولا ينفع، بل هو مصر على متابعة الهوى، بيّن حالي المؤمن الذي ينتفع بما يسمع فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾))[2].

وقد تم عرض موقف المؤمنين بأبلغ قول وأحسنه عرضاً بليغاً يتلاءم مع مكانتهم، وعلو قدرهم، فقد تم إسناد الاهتداء إليهم في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ ﴾ وفي ذلك إشارة إلى سعيهم الدؤوب نحو الهداية، فقد بذلوا لها الأسباب، وسعوا في تحقيقها، وعملوا بمقتضاها.[3]

وقد جازاهم – سبحانه – الجزاء الأوفى بأن زادهم هدى على هدى، فالجزاء من جنس العمل، وقد جازاهم – سبحانه – على ذلك جزاء عظيماً، يدل على ذلك تنكير لفظة " التقوى" فإن التنكير فيها للتعظيم[4]، فهو هدى عظيم يتناسب مع موقفهم، ويتلاءم من مكانتهم ومنزلتهم من الله.

ولم يقف جزاؤهم عند هذا، بل زاد – سبحانه – وهو أهل التفضل والجود – بأن آتاهم تقواهم فضلاً منه ومنّة، فقد ألهمهم وأرشدهم إلى سلوك سبيل التقوى، وهيئ لهم أسبابها[5]، وقد أُضيفت لفظة " التقوى" إلى ضمير هؤلاء المؤمنين في قوله: ﴿ وَءَاتَىٰهُمْ

---

(١) ومن هؤلاء المفسرين: الرازي، يُنظر: مفاتيح الغيب: ٢٨/٥١. وابن عطية، يُنظر: المحرر الوجيز: ٥/١١٥، والشهاب الخفاجي، يُنظر: حاشيته: ٨/٤٦. والجمل، يُنظر: الفتوحات الإلهية: ٧/١٩٣، والطاهر ابن عاشور، يُنظر: التحرير والتنوير: ٢٦، ١٠٢، وغيرهم.

(٢) الفتوحات الإلهية: ٧/١٩٣.

(٣) يُنظر: المحرر الوجيز: ١٥/١١٥.

(٤) يُنظر: روح المعاني: ١٣/٢٠٧.

(٥) يُنظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/١٨٧.

﴿ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ إشارة إلى أنهم ((عُرفوا بها، واُختُصَّت بهم))[1]، دلالة على تمكنهم في التقوى، وعملهم بمقتضاها، ولسيد قطب كلام نفيس في تفسير هذه الآية، وقد تضمنت الإشارة الواضحة إلى التقابل، أختم به الحديث عن هذه الآية، يقول: ((﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ذلك حال المنافقين، فأما حال المؤمنين فهو على النقيض﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾، وترتيب الوقائع في الآية يستوقف النظر، فالذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء فكافأهم الله بزيادة الهدى، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل ﴿ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ والتقوى حالة في القلب تجعله أبداً واجفاً من هيبة الله، شاعراً برقابته، خائفاً من غضبه، متطلعاً إلى رضاه، متحرجاً من أن يراه الله على هيئة أو في حالة لا يرضاها، هذه هي الحساسية المرهفة، هي التقوى، وهي مكافأة يؤتيها الله من يشاء من عباده حين يهتدون، ويرغبون في الوصول إلى رضا الله.

والهدى والتقوى والحساسية تقابل حالة النفاق والانطماس والغفلة في الآية السابقة))[2].

ومع ختام هذه الآية ختام لآيات التقابل في سورة محمد، ووصول بهذا البحث إلى نهايته، والبلوغ إلى خاتمته، ولم يتبق منه إلا خاتمته، للوقوف على نتائج البحث وثمرته، والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(1) التحرير والتنوير: ١٠٢/٢٦.

(2) في ظلال القرآن: ٣٢٩٤/٦ .

الخاتمة:

وبعد: فهاهي نهاية المطاف، وخاتمة البحث لهذه الصحبة الطيبة لهذه السورة المباركة، التي سعدت بصحتها، والعيش في رحابها، والتنقل في أرجائها، والاسترواح بظلها وظليلها، وبعد هذا الإبحار الماتع يصل البحث إلى غايته، وهذه بعض النتائج التي أمكن الاهتداء إليها من خلال هذه الدراسة، ومن أبرزها ما يأتي:

أولاً: أن تقابل المعاني في سورة محمد كان ركيزة رئيسة، وظاهرة بارزة في السورة، وقد اتخذ هذا التقابل أنماطاً متعددة، وصوراً شتى، وقد كانت هذه الظاهرة تحت نظر العلماء وعنايتهم، فأشاروا إليها، وأشادوا بها، تنظيراً وتطبيقاً.

ثانياً: أن ثمة أسباباً توافرت وتضافرت فيما بينها فكانت سبباً لوجود التقابل في سورة محمد، ومن هذه الأسباب ما يأتي:

١ـ أن سورة "محمد" من أوائل السور التي نزلت في العهد المدني، فقد نزلت بعد الهجرة، وبعد بداية عهد جديد في المدينة، فقد كانت الهجرة الحد الفاصل، ونقطة التحول في تأريخ الدعوة الإسلامية، فقد تمايز الناس بعد الهجرة، وانقسموا إلى مؤمنين وكافرين، ومن ثم ظهر التباين، ووضح التقابل، فجاء هذا التقابل في سورة محمد امتداداً لهذه المرحلة، وإشارة إلى هذا التمايز، جاء ليعطي كل فريق حقه من الإشارة والإشادة، وليبين موقف كل فريق من القرآن، وممن أُنزل عليه القرآن، وليبين حالهم في الدنيا والآخرة.

٢. أن من أسماء السورة القتال، وطبعي أن القتال يقسم الناس قسمين، ويجعلهم فريقين، ومن ثَم جاءت السورة كلها موضحة هذا التقابل، متحدثة عن كل فريق على حدة، ولذا كان هذا التقابل ركيزة رئيسة في بيان حال كل فريق.

٣ـ كما أن من أسماء السورة – كذلك – محمد، وقد انقسم الناس حول مبعثه قسمين، واختلفوا حوله إلى فريقين، فريق صدَّق به واتبعه، وفريق كذَّب به وبرسالته،

وحاربه، فقد تمايز الناس في موافقهم معه، وانقسموا، ومن ثم جاء التقابل في سورة محمد ليبين حالة كل فريق، ويذكر حاله ومآله في الدنيا والآخرة.

ثالثاً:قام التقابل في كثير من مواضعه على الاحتباك، وهذا أمر طبعي، لتلاؤم التقابل مع طبيعة الاحتباك، فما يذكر في طرف يُحذف مقابله من الطرف الآخر، لدلالة الأول عليه، وهكذا.

رابعاً: برز أسلوب التأكيد كثيراً في آيات التقابل، وكان أكثر الأدوات برزواً "إنّ". وسبب توافر بروز التأكيد وكثرته: هو أن التباين بين الفريقين، والتقابل بينهما أمر ظاهر للعيان، وكأنها حقيقة مؤكدة، ونتيجة مقررة، ومن ثَم جاء التأكيد إشارة إلى هذا المعنى، ودلالة عليه.

وقد يكون سبب توافر التأكيد فيها: الإشارة إلى من يشك أو ينكر بين التباين بين الفريقين، فجاء التأكيد تحقيقاً لهذا التقابل، وتقريراً له.

خامساً: قام التقابل في كثير من آياته على الأسلوب الخبري، ما عدا آية واحدة، جاء التقابل فيها من خلال أسلوب الإنشاء، بطريق الاستفهام، ولعل السرَّ في ذلك: أن مجيئه بأسلوب خبري: إشارة إلى أن هذا التقابل حقيقة مقرَّرة لا تقبل نقاشاً و جدلاً. وإنما تُذكر ابتداء فتنقاد لها النفوس، وتؤمن بها.

سادساً: بيّن هذا البحث التقابل بمفهومه العام، كما أن ثمة عدداً من العلماء قديماً وكثيرا من يدعو إلى تأكيد هذا النوع من التقابل.

ولذا فإني أوصي في ختام هذه الدراسة: أن تُدرس المحسنات البديعية في ضوء هذه النظرة الشمولية، وأن تُوسع دائرتها، لتشمل الصورة كلها، والتركيب كاملاً، دون الوقوف عند اللفظة واللفظتين، وبيان ما يقابلها.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات

ثبت المصادر والمراجع

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٣هـ.

٣. أنوار الربيع في أنواع البديع، للسيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، حققه وترجم لشعرائه شاكر هادي شكر، مطبعة النجف الأشرف، ط: الأولى: ١٣٨٨هـ.

٤. البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسين دارسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض، ود. زكريا عبدالمجيد النوني، ود. أحمد النحولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ.

٥. البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة دار التراث.

٦. البديع المصطلح والقيمة، د. عبدالواحد علام، مكتبة الشباب. القاهرة، ١٩٩٢م

٧. التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، تحقيق: إبراهيم عطوه عوض، دار الحديث القاهرة.

٨. التحرير والتنوير، للشيخ محمد بن طاهر بن عاشور. (د.ت)

٩. تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣هـ.

١٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، مطبعة البابي الحلبي وأولاده. مصر، ط: الثالثة.

١١. حاشية زادة على تفسير البيضاوي، لمحيي الدين شيخ زادة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢. حاشية الشهاب، المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت.

١٣. دراسات منهجية في علم البديع، د. الشحات محمد أبو ستيت، ط: الأولى: ١٤١٤هـ.

١٤. دراسات في المعاني والبديع، د. عبدالفتاح عثمان، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٤٠٢هـ.

١٥. دراسات في علم البديع، د.أحمد محمد علي، مطبعة الأمانة، مصر، ط: ١، ١٤٠٦هـ.

١٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الرابعة: ١٤٠٥هـ.

١٧ـ صحيح البخاري. للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري. دار السلام. الرياض. ط: الأولى: ١٤١٧هـ.

١٨. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير. لمحمد بن علي الشوكاني. دار الفكر. بيروت. ١٤٠٣هـ.

١٩. الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية. لسليمان العجلي الشهير بالجمل. ضبطه وخرج آياته: إبراهيم شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت. ط: الأولى: ١٤١٦هـ.

٢٠ـ الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. ١٣٩٢هـ.

٢١. لسان العرب. لابن منظور. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط: الثالثة: ١٤١٣هـ.

٢٢. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. لضياء الدين ابن الأثير. قدمه وعلق عليه: د. أحمد الحوفي. ود. بدوي طبانة. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٣. محاسن التأويل. لجمال الدين القاسمي. علق عليه وخرج آياته وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي. دار إحياء الكتب العلمية.

٢٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. لأبي محمد بن عطية الأندلسي. تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية. بيروت. ط: الأولى: ١٤١٣هـ.

٢٥. معالم التنزيل. للبغوي. إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك. ومروان سوار. دار المعرفة. بيروت. ط: الثانية: ١٤٠٧هـ.

٢٦. معاني القرآن. للفراء. تحقيق: أحمد يوسف نجاتي. ومحمد علي النجار. ود. عبدالفتاح شلبي. وعلى النجدي ناصف. دار السرور.

٢٧. معاني القرآن وإعرابه. لأبي إسحاق الزجاج. تحقيق: د. عبدالجليل عبده شلبي. دار الحديث. القاهرة. ط: الأولى: ١٤١٤هـ.

٢٨ـ مفاتيح الغيب. للإمام الفخر الرازي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط: الثالثة.

٢٩. مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن، لأبي عبدالله جمال الدين الشهير بابن النقيب، تحقيق: د. زكريا سعيد علي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الأولى: ١٤١٥هـ.

٣٠. من بلاغة النظم القرآني، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مطبعة الحسين الإسلامية، ط: الأولى: ١٤١٣هـ.

٣١ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، (د. ت)

٣٢. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط: الثانية: ١٤١٣هـ.

٣٣ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، دار القلم، بيروت، (د. ت)

* * *